يوكو أوغاوا

Twitter: @alqareah
20.1.2016

حوض السباحة

رواية

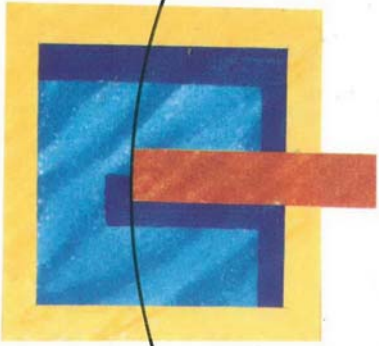

ترجمة: بسّام حجّار

دار الآداب

يوكو أوغاوا

حوض السِّباحة

رواية

ترجمة بسّام حجّار

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @alqareah

حوض السبّاحة

Twitter: @alqareah

حوض السِّباحة

يوكو أوغاوا/روائيّة يابانيّة

ترجمة: بسّام حجّار

الطبعة الأولى عام ٢٠٠١

جميع الحقوق محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 123 4-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Twitter: @alqareah

(١)

الجوّ جميل جدًّا. لطالما أشعرني دخولي إلى هذا المكان بأنَّ وحشًا خرافيًّا ما يبتلعني. أجلسُ، ولا يلبث شعري وأجفاني وصديري مريولي أن تتشبَّع بالحرارة السائدة فتصبح رطبة. أسبح في رطوبةٍ أعذب من التعرّق، تفوح منها رائحة زيت قطران خفيَّة.

صفحة المياه، زرقاء باهتة، تمور في الأسفل، عند قدمي. أحاول، عبثًا، أنْ أبصرَ القعرَ فتعيقني الفقاقيع الصغيرة التي لا تكفُّ عن الصعودِ إلى السطح. السّقف المزجّج، عالٍ جدًّا. وأنا جالسة، كأنّي معلّقة، وسط المدرَّجات المخصَّصة لجمهور المتفرّجين.

يتقدّم جون على مرقاةِ الغطس ذات العشرة أمتار. يرتدي كلسون السباحة الأحمر القاني الذي

Twitter: @alqareah

لمحته أمس معلَّقًا تحت إفريز شبّاك حجرته. حالما يصل إلى طرف لوحِ المرقاة، يستدير ببطء موليًا صفحة الماء ظهره ويضمّ عقبيه واحدهما بجنب الآخر؛ كلّ عضلات جسمه مشدودة بأقصى ما تحتمل كأنَّه يحبس أنفاسه. وفي تلك اللحظة تكون العضلة الممتدّة من عرقوبه وصولاً إلى فخذه هي عضلتي المفضَّلة من عضلات جسمه، ففيها تبدو الأناقة المصقولة لتمثالٍ من البرونز.

لقد خبرتُ أحيانًا الرغبة في أن أعرِّف المتعة التي أشعر بها في اللّحظةِ التي يرفع فيها يديه، كما ليلتقط شيئًا ما في الفضاء قبل أن يغور تحت الماء. غير أنّي لم أجد يومًا العبارات الملائمة، ألأنه يغوصُ في وادي الزمان المنعزل حيث أبدًا لا تَصِلُ العبارات؟ أهمسُ قائلة:

«ركلة للقمر المحفوف بالمخاطر ونصف مثيلتها للقفزة المضمومة».

لقد أخفق. ارتطم صدره بصفحة الماء باصطفاقة مدوّية؛ وتبعَ الصدمة رشاشٌ أبيضُ مُتَّصلُ الحلقاتِ متماديها.

وسواء كان الأداء إخفاقًا، كما هو الآن، أو مثاليًا لا يرفع من الماءِ رشًّا ولو قليلاً، فإنَّ شعوري يبقى

Twitter: @alqareah

هو هو لا يتغيَّر. لذلك أراني لا أصلّي، أبدًا، لكي يكون غطسه ناجحًا، كما لا أراني محبطة أو مصفّقة بحماسة. جسد جون الفارغُ الرّشيق يشقّ الطبقة السطحيَّة من مشاعري لكي يُمتصَّ إلى أعمقِ ما في كياني. وما إن يظهر خياله بين الفقاقيع، حتّى تجاري صفحة الماء محيط كتفيه وتغطّيه كغلالة. ومكسوّ الكتفين بتلك الغلالة، يسبحُ متمهّلاً نحو حافّة الحوض، سباحة بطنٍ مشتملة ومتأنّية.

لقد سَبَقَ أن رأيت مبارياتٍ غطس نقلها التلفزيون وقد ثُبّتت إحدى الكاميرات تحت الماء. المتبارون الذين يخترقون سطح الماء تدفعهم قوَّة اندفاعتهم إلى القعر مباشرة. الحوض مُشْبَع بالصبغ الأزرق. يتقوقع الرياضيّون على أنفسهم، ليغيّروا اتجاههم، ويضربون القعرَ بأقدامهم لكي يصعدوا مجدّدًا إلى السطح. وهذا أجمل بكثير من بقيَّة الأداء. العرقوبان واليدان التي تشقّ المياه لها حركات مطّاطة، والجسد كلّه يسبح في نقاء الكَنَف المائيّ. فإذا كان المتسابق امرأة تهدّل شعرها متموِّجًا كأنَّ نسمًا يداعبه. ومن يُبْصِر سيماء الدعة على وجوههم، جميعًا، يحسب أنّهم يتنفّسون الصعداء.

متبارون كُثُرٌ يغطسون عابرين من أمام الكاميرا

Twitter: @alqareah

المغمورة بالمياه، في حركةٍ انسيابيَّة رشيقة؛ ولطالما ودِدتُ أن يعبروا أبطأ ممّا يفعلون لكي يتسنّى لي أن أراقبَ خيالهم المكتنف بالماء، لكنّ الأمر لا يستغرق أكثر من ثانيتين أو ثلاث حتّى يلامس وجوههم السطح؛ فتذكّرني رؤيتهم على هذا النحو بأنَّ كلّ الكائنات البشريَّة قد سبحت ذات يوم في ماء الرّحم.

هل يدع جون، هو أيضًا، عضلاته تطفو بحرِّيَّة في قعر الحوض مثل جنين في بطن أمّه؟ أحْسَبُ أنّي لأكون أفضل حالاً بكثير لو يُتاح لي أن أتأمَّل، على سجيَّتي، جِسْمَهُ المتخفّف من كلّ توتّر.

إنّي جالسة على مدرَّجات حوض السّباحة المخصَّصة للغطس، منذ وقت غير قصير. أمس كنت هنا أيضًا، وأمس الأوَّل، وأيضًا منذ ثلاثة أشهر خلت. لا أفكّر في شيء، لا أنتظر شيئًا، وليس لديّ أدنى فكرة عمَّا يأتي بي إلى هنا. أكتفي بالتحديق بجسم جون المبلَّل.

منذ أكثر من عشرة أعوام ونحن نعيش تحت سقف واحد ونتردَّد على المدرسة الثانويَّة نفسها، فنلتقي، إذًا، مرارًا في اليوم الواحد ونتبادل الأحاديث بانتظام، لكنّي أشعر أنّه قريب منّي، بما

Twitter: @alqareah

لا يقاس، عند حوض السّباحة. أعزل في لباس السّباحة، يغطس ثمَّ يغطس مرارًا وتكرارًا، متّخذًا بجسده كلَّ الوضعيّات الممكنة: مستقيمًا، مضمومًا، أو قافزًا مثل سمكة. أضع محفظة كتبي عند قدميّ وأجلس على المدرَّج بتنّورتي ذات الثنيات المكويّة بعناية وصديري المغسول حديثًا. حتّى أنّي لا أستطيع أن أمدَّ يدي باتجاهه.

ومع ذلك فإنَّ هذا الموضع مميّز. إنّه مرقب مخصّص لاستعمالي الشّخصيّ يتيح لي أن أراه. يَعْبُر من خلالي من دون أن يحرف طريقه.

بعد السّير حتّى بلوغ ناصية الشارع التجاريّ، ناحيةَ المحطّة، وما إن أسلك أوّل زقاق إلى الجنوب انطلاقًا من الطريق المعبَّدة المحاذية للسكّة الحديد، تتضاءل حركة النّاس فجأةً. وخلال شهر أيّار، كما في مثل هذا اليوم، حين أغادر المحطّة بعد أن أكون قد غادرت الحوض حيث أنهى جون تمريناته، تكون ما تزال هناك بقيّة من ضياء ما بعد الظهيرة. وبعد اجتياز الساحة حيث لا يوجد سوى مسكبة من الرّمل ونافورة مياه ودار لسكن العمّال العازبين وحضانة مقفرة، لا يبقى سوى صفّ من المساكن الاعتياديّة. وينبغي أن أسير خمسًا وعشرين

Twitter: @alqareah

دقيقة في هذا الشّارع المستقيم قبل بلوغي الدّار. حَشْدُ الناس الذين تدفّقوا من داخل المحطّة في الوقت الذي غادرتها فيه، يتضاءل تدريجًا، فيما الضياء القليل المتبقّي يبتلعه الغروبُ الوافد بخطواتٍ حثيثة. وفي آخر المطاف، أجدني، في العادةِ، وحيدة.

هناك أوّلاً غيضة إثر سلسلة متوالية من الأسيجة الوطيئة المكوَّنة من أغصان متشابكة، يليها جدار من حجر رِباط مكسوٌ جزئيًا باللبلاب. أمّا المواضع غير المكسوَّة باللبلاب فقد مالت إلى لون الطحلب، فيبدو الجدار وكأنّه أصبح نباتيًا بأكمله. البوّابة مُشرَّعة على مصراعيها وسلسلة حديد صدئة وُضعت لتحول دون إغلاقها.

لم أرَ يومًا هذه البوّابة مغلقة. إنّها دائمًا مشرَّعة على مصراعيها لاستقبال كلّ أنواع البشَر الّذين يأتون بحثًا عن مخلّص يتكفّل بعذاباتهم ومصاعبهم. هنا لا يُغلق الباب دون أحدٍ من النّاس، وأنا منهم طبعًا.

بعلوّ البوّابة نُصِبَت لوحة ذات غَلَقَةٍ من الزجاج ومضاءة بلمبة نيون. ـ إرشاد الأسبوع: مَنْ مِن بيننا، أنا أو الآخر، هو الأعزّ؟ نحن كلّنا بشر. وما من غريب في هذه الأرض.ـ بعد ظهر كلّ يوم سبت

Twitter: @alqareah

يُهيِّئ أبي حبره مقلّبًا صفحات الكتاب المقدّس، ويصرف الكثير من الوقت قبل الاهتداءِ إلى توليفة «إرشاد الأسبوع». إنَّ صندوقة النَّسْخ لديه قديمة جدًّا، عابقة برائحة الحبر. يسكب قليلاً من الماء على الحجر ويفرك القضيب برفق ممسكًا به جيِّدًا لكي يبقى مستقيمًا، ثُمَّ يغمس ريشته. حركاته بطيئة، متريِّثة، كأنَّما تؤدّى على نحوٍ شعائريّ. أمرُّ دائمًا ببابه من دون أن أثير جلبةً ولوَ ضئيلة كي لا أعَكِّر استغراقه الصارم هذا.

أربع حشرات ضئيلة جذبها النّيون تزحف بين الحروف التي خطَّها أبي.

لقد حلَّ الليلُ من دون أن أنتبه. فبعد اجتياز البوّابة يبدو كلُّ شيءٍ أكثر إعتامًا من الخارج. ذلك أنَّ المكان بأثره يَنُوء بزحف النّبات؛ فقد غُرِست شجرات ذات أوراق دائمة وأخرى ذات أوراق نافضة بلا تناسق مذهل على طولِ حائط السّياج؛ تتشابك أغصانها كيفما اتّفق بحسب نموّها. أمّا الباحة فهي مظلَّلة كلِّيًا بمزيج من الاخضرار من دون أن يُعرف بالضبط ما إذا كانت أعشابًا برِّيَّة أم نباتات مزهرة.

وسط هذا كلّه، تتشابك أوراق شجرتي جنكة

Twitter: @alqareah

عملاقتين فيأتلف منها ظلّ أشدُّ حلكة من السّماء المعتمة. وفي خريف كلّ عام، يعمد الأولاد إلى جمع جَوْزهما مُرتدين قفّازات العمل. جون، وهو أكبر الأولاد سنًّا، يجلس مفرشخًا فوق غصن غليظ ثمَّ يعمد إلى هزِّ الشّجرة فيتساقط مزيج من الثّمار والأوراق اليابسة الصُّفر، فيما يتراكضُ الأولاد في كلِّ اتّجاه ضاجّين عابثين. كلّما مررتُ بهاتين الشّجرتين أستذكر قشور الجوز المسحوقة مثل ديدان تحت نعالِ الأولاد والرائحة الحرّيفة التي تنبعث منها.

إلى يسار شَجَرتي الجنكة تنتصبُ الكنيسة، ثمَّ، موصولاً برواق ومنزويًا على نحوٍ موارب، مبنى مؤسَّسة هيكاري. وهناك أُقيم.

الرّطوبة الزّرقاء الباهتة، الهفَّافة التي تشبَّعَ بها كياني كلُّه على مدرَّج حوض السّباحة، قد تلاشت تمامًا في طريق عودتي إلى هنا، ويُخيّل إليَّ أنَّ حتَّى مشاعري قد جَفَّت. مثلُ هذا يتكرَّر كلَّ يوم. أن أقرأ «إرشاد اليوم» وأعبر البوّابة المشرَّعة أمام الجميع وأفتح باب مؤسَّسة هيكاري مستذكرة رائحة جوز الجنكة، هي أمور بسيطة أعجز عن الإتيان بها من دون تفكير. فثمَّة يباس يخدش صدري ويحول دون

Twitter: @alqareah

ذلك.

إنَّ مشهد مؤسَّسة هيكاري المكتنفة بالخضرة هو مشهد واقعيّ حقًّا، ومع ذلك أشعر بأنَّه ضبابيّ تمامًا؛ إلاّ إذا كانت حواسّي، على الضدّ من ذلك، وقد أُرْهِفَت منه حتّى الألم، تتمثَّل المنظر إلى ما لا نهاية. ومهما يكن من أمر ما كان، فإنَّ هناك توتّرًا غير قابل للشّفاءِ بيني وبين المؤسَّسة وأحسب أنَّ هذا هو بالذّات ما يثقل على أنفاسي.

ومع ذلك فإنَّ المكان هو داري، أسرتي تقيم هنا. وجون أيضًا. هذا ما أردّده في سرّي فيما أفتح باب المؤسَّسة بعد اجتيازي ستارة الخضرة، مغمضة العينين.

فيما أُقلِّبُ ذكرياتي في رأسي، أدرك فجأةً أنَّ الذّكريات الأولى هي التي تبقى الأعمق أثرًا في ذاكرتي.

كان ذلك بعد ظهيرة يوم من مطلع الصّيف وأشعّة الشّمس قد أصبحت حارَّةً. كنتُ منصرفةً إلى اللعب

Twitter: @alqareah

مع جون بقرب البئر في الحديقة الخلفيَّة. وكانت البئر قد رُدمت منذ وقت طويل بالتّراب ونبتت، في موضعها، شجرة تين. لا بدَّ أنّنا كنّا لا نزال في الرّابعة أو الخامسة من العمر والمؤسَّسة قد وافقت لتوِّها على استقبال جون. فهو طفل غير شرعيّ لأمّ مدمنة أشدّ الإدمان على الكحول، عهد به إلينا أحد رعايانا من بين الأشدّ حماسة.

كنتُ قد قَصَفْتُ غصنًا من شجرة التِّين ورحت أتأمّل السّائل الحليبيّ اللّزج يتدفّق من موضع انقصافه. كان النّسغ أشدّ كثافة ممّا كنت أحسب وراح يلتصق بأصابعي. قلت لجون وأنا أقصف غصنًا آخر:

«هيّا تعال، إنَّه موعد التلفزيون!»

أجلسته على ركبتي، وإذ طوَّقت كتفيه بإحدى ذراعيّ، رحتُ بالأخرى أدسّ غصن التّين المقصوف بين شفتيه. في ذلك الوقت لم يكن شيءٌ في جسمه قد يشي بوجود خطوط العضلات اللاّمعة المكسوَّة بمياه حوض السّباحة الرّقراقة. على زندي لم تكن له سوى ليونة طفل اعتياديّ، وقد كوَّر شفتيه وراح يرضع كما يرضع مولودٌ جديد. وإذ ضمَّ كفّيه فوق يدي كان يتظاهر حتَّى بأنَّه

Twitter: @alqareah

يُمسكُ برضّاعة متخيَّلة. كان لحليب غصن التِّين رائحة تراب مالح.

فجأة شَعرتُ بأنّي عرضة لإحساس مرعب ومتهافت في وقت معًا. هكذا بدأ الأمر. ربّما كان حليب شجرة التِّين أو ليونة جسد جون هما اللّذان تسبّبا بشيء ما: إلاّ إذا كان الأمر يعود إلى وقت سابق، وأنَّ هذا الأمر السيّئ قد تسرَّب إلى كياني حتَّى قبل أن أولد.

ـ ثمّ، من يكون جون هذا؟ ذات يوم حلَّ في حياتي بغتة، وها نحن نقيم معًا، مع أنّنا لسنا أخًا وأختًا. وهو ليس الوحيد. فحيث أقيم هناك عدد آخر غير محدّد من النّاس الذين يتصرَّفون وكأنَّهم من أفراد العائلة. والواقع أنّنا، من حيث المبدأ، ثلاثة: أبي وأمّي وأنا. ونحن مختلفون عن أيّ عائلة اعتياديَّة أخرى، فعائلتنا ليست كالعوائل الأخرى.

كان شعوري بالاشمئزاز يوشك، على نحو مستهجن، أن يُصبح ملموسًا. قَصَفتُ غصنًا أكبر من سَابِقَيْه بدا لي أنَّه أغزر حليبًا وفركت بطرفِه شفتيه: راح يلحسهما مقطّبًا قليلاً. وفي تلك اللّحظة بالذّات تغدو أشعَّة الشَّمس أكثر حدَّةً وسطوعًا، ويتلاشى المنظر إذ يستحيلُ بياضًا،

Twitter: @alqareah

وينتهي فيلمي الأقدم.

منذ ذلك الحين، وتلك الظّاهرة الغريبة لم تختفِ بل راحت تتكرَّر. لا أستطيع أن أبقى لا مبالية حيال عبارتَيْ «عائلة» و«بيت»، حين أسمعهما كأنَّ لهما معنًى خاصًّا. غير أنَّ وقعهما في أذنيّ أجوف، في الحقيقة، ويتدحرج عند قدميّ مثلَ علبتي شرابٍ فارغتين.

والداي هما راعيا الكنيسة التي تعتبر وسيطًا بين الله والمؤمنين، وهما، في الوقت نفسه، المشرفان على مؤسَّسة هيكاري. والمؤسَّسة هي عبارة عن دار للأيتام، أنا الوحيدة التي ولدت فيها من دون أن أكون يتيمة. وهذا ما شوَّه صورة عائلتي.

أقلِّب بين الحين والحين صفحات الألبومات الموضوعة على الرّفِّ الأسفل من مكتبة روضة الألعاب، وكأنّي بذلك أودّ التثبّت مِن طبيعة ذلك الشّعور الذي يستبدّ بي. أَجْلِسُ، مجانبةً ساقيّ، وسط كتب الصّور والمكعّبات المنتشرة على الأرضيَّة، وآخذ منها الألبوم الذي يكون بمتناول يدي.

الصور جميعها التقطت خلال احتفالات مؤسَّسة هيكاري. خلال الاحتفال بأشجار الكرز المزهرة،

Twitter: @alqareah

أو الصَّيد، سيرًا، على شاطئ البحر، وحفلات الشّواء أو قطاف جوز الجنكة. إنَّها غاصَّة بالأيتام. وجوه الأولاد تتعاقب كما تتعاقب الوجوه في صور تلامذة صفٍّ واحد خلال رحلة مدرسيَّة. وأنا أقف في وسطهم. عندما تنتهي الرّحلة يتفرّق التّلامذة ويعود كلٌّ منهم إلى بيته، أمّا الأيتام فيعودون، مجتمعين إلى الميتم، وأجدهم، على الدّوام، من حولي.

في معظم الصُّوَر يبدو أبوايَ واقفين خلفَ المجموعة، مبتسمين. ابتسامة أبي هادئة، رصينة، غير متبدّلة، وفيها شبهةٌ من احتفاء. وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، لأنَّ معظم حياته مكرَّس للاحتفالات الدينيَّة. إنَّه مستغرق دائمًا في صلواتٍ ورعة لا تنتهي. أحدِّقُ في صوره بالنّظرات نفسها التي أتأمّل بها المذبح، جاثية على مركعيّ.

أقلّب صفحات الألبوم بلا مبالاة. أشاهد صور المجاميع هذه التي لا تتجدَّد. أحدِّقُ بأسىً بهذا الألبوم الذي لا ذِكْرَ فيه لطولِ قامتي أو وزني لدى الولادة، ولا بصمة قدمي المطبوعة بالحبر الصينيّ، ولا الصّور الفوريَّة لنا، نحن الثلاثة. والضّجّة البلا صدى التي يُصدرها حين أغلقه أشبه بجلبة انسحاق

Twitter: @alqareah

عائلتي تحتَ ثقل الأيتام.

يحلو لي أحيانًا أن أفكّر أنَّه ربّما كان حريًّا بي أن أكون، أنا أيضًا، يتيمة، وأن أكون قد تعرَّضت على الأقلّ لإحدى تلك المآسي المتوافرة بكثرةٍ ها هنا: أمٌّ مدمنة كحول، أبٌ قاتل، أبوان متوفّيان، أولاد متروكون. ولأصبحت يتيمة مثاليّة. ولبذلت، عندها، من دون شكّ، ما لا يُبذل عادةً من طاقات المخيّلة لاعتبار المشرفين على المؤسَّسة بمثابة والداي، أو التظاهر ببراءة الطّبع ريثما تتبنّاني أفضل العائلات الممكنة. وكانت حياتي، على هذا النحو، لتكون أوضح بما لا يُقاس.

من قعر ذكرى شجرة التّين النابتة على خرائب بئر، لم أكفّ، مثل ملاك، أن أضمر الرّغبة نفسها. منزل اعتياديّ، بسيط، وحميم.

ما إن يتوارى جون في حجرات الملابس، أو بعيد ذلك، أحمل مجدّدًا محفظة كتبي من بين قدميّ وأنا مستغرقة في تأمّل صفحة مياه الحوض وهي تستعيد ركودها. عندما أنتظر، مساء الأحد ساكنة لا أبرح مكاني لكي لا أخطئ موعد رجوعه، الجلبة التي يحدثها جون العائد من مباراة، مفسحًا طريقه عبر الخضرة الشائكة الغارقة في ظلام حالك، أشعر

Twitter: @alqareah

برغبتي تنبثق مثل ضبابة. عندما ينقبض صدري بلا سبب، ومن دون أن يكون هذا الإحساس قويًا بما يكفي لأن يسمّى حزنًا، ترتقي رغبتي متمهّلة فلا أعود، في آخر الأمر، قادرة على بلوغها.

أعلم أنَّ لا حول لي ولكنّي أبحث متلمّسةً. في الحياة هناك أشياء كثيرة لا نملك أن نفعل بصددها شيئًا، وأعلم أنَّ أسوأ الأمور، بالنّسبة لي، هو وجود هذه المؤسَّسة.

عاد جون أخيرًا؛ اجتماع عقد بعد التمرينات جعله يصل متأخّرًا ساعة من بعدي.

مرَّة واحدة في الأسبوع أو كلّ عشرة أيّام، كنت أتدبّر الأمر بحيث أكون بقرب الهاتف أو الكنبة في لحظة وصوله تقريبًا. وأبذل ما بوسعي لكي أبدو على سجيّتي، لأنّي أدرك جيّدًا أنَّ الأمور ستصبح شديدة التعقيد لو فطن لهذا الأمر أحد الأولاد، أو أحد العاملين، أو أحد أبويّ، أو، وهذا الأسوأ، جون بذاته. كنت أتحدّث عبر الهاتف، بلا سبب،

Twitter: @alqareah

مع إحدى صديقات صفّي، أو أقلّب كالبلهاء صفحات مجلّة ما.

عند المساء، إجمالاً، تكون ردهة الاستقبال مقفرة وساكنة. ليس في الردهة سوى كنبة عتيقة بالية النّسيج ملطّخة، وهاتف ذي عدّادة قديم الطراز، رتّبت فيه على نحو متقشّف. أمّا نور اللّمبة فيندلع أصفر باهتًا على الأرضيّة.

في ذلك اليوم، أبحت لنفسي أن «أستقبل» جون. دلف إلى الرُّدهة مرتديًا سترة بزّته، ومحفظة كتبه وحقيبة الرياضة البلاستيك بيده.

«مساء الخير!

ـ مساء الخير».

كان يُخيَّل إليَّ أنَّ أبسط الكلمات تكتسب على لسانه عمقًا غير متوقَّع. كان قد فرغ لتوّه من تمارينه وما زال جسده يحتفظ بنضارةٍ ما تفوح منها رائحة النّظافة التي يوحي بها حوض السّباحة. وكنتُ أشعر بسعادة أكبر حين يكون شعره محتفظًا ببعض البلل.

«إنّي جائع!».

أوقع حقيبته من يده وارتمى على الكنبة متهالكًا. لكنَّ مزاجه لم يكن سيّئًا، فحتّى تَعَبه كانت تفوح منه رائحة حوض السّباحة المنعشة.

Twitter: @alqareah

«كم أحسدك لأنّك قادر على مزاولة الرياضة وعلى الإحساس بالجوع! أنا لا أفعل شيئًا ومع ذلك لا يفوتني أبدًا موعد وجبات الطعام. وفي مثل هذه الحال يكون الجوع مجرّد إحساس غامض وغير مفيد، ألا تعتقد ذلك؟ قلتُ له متّكئةً على الهاتف.

ـ يجب أن تزاولي الرّياضة أنت أيضًا».

أشرتُ أنْ لا برأسي من دون أن أرفعه.

«أفضّل أن أكون متفرّجة على أن أزاولها».

أجفلتُ وأنا أنطق بتلك العبارة. فهل أدرك أنّني منذ عام تقريبًا وأنا أراقب تمريناته من أعلى المدرّج؟

ولأنّ الأمر بالنّسبة لي أشبه بلحظة حميمة أبقيها سرًّا، كنتُ أجلس في أبعد موضع من مرقاة الغطس، كما أحرص على أن لا ألتقيَه حين يكون برفقة آخرين من أعضاء النادي عند مدخل الحوض. فمن الطبيعي إذًا ألاّ يكون قد لاحظ شيئًا. ولكن، في الوقت نفسه، كان شعورٌ متناقض يجعلني أشعر بالأسف قليلاً لأنّه لا يلاحظ وجودي هناك.

لم يخاطبني جون يومًا بما من شأنه أن يحرجني؛ كأن يسألني مثلاً إذا قصدت حوض السّباحة يوم أمس، أو ماذا أفعل في ركني ذاك. وكنت أحسب

Twitter: @alqareah

أنَّ قربنا لَيَكون حميميًّا لو أنَّه لا يسأل لا لأنَّه لم يلاحظ ذلك بل لأنَّه لاحظ ويمتنع، عمدًا، عن السؤال لكي يترك لي حرِّيَّة أن أتصرَّف كما يحلو لي.

«اليوم، آذيتُ معصمي، لقد مسَّ الماءَ مائلاً؛

ـ أيّهما؟».

رفع يده اليسرى وهو يلوّي معصمه. لطالما خشيتُ، إلى حدِّ الذعر، من تعرُّض جون لأيّ أذى. وهذا الشعور يظهر كم أنّ جسده كان مهمًّا في نظري. استدارة عضلاته، لمعان صدره أو حدَّة نظراته في اللّحظة التي يقرّر فيها الغطس، تتكشّف عن شهوانيَّة غالبًا ما يتمّ كبتها. إنَّ جَسَده على قدر من الكمال في نظري بحيث ينتابني القلق ما إن يتعرَّض لأذى.

«أستكون على ما يرام؟ وموعد التصفيات بين الأندية أصبح وشيكًا، أليس كذلك؟

ـ الأمر لا يستحقّ» أجابني باقتضاب.

لكي يثقب سطح المياه مثل إبرة، من دون ترشّش ولو أقلّه، كان جون يضمّ معصميه أحدهما إلى الآخر بشدّة لكي يخترق جدار المياه المتموِّجة. ولهذا السبب كان معصماه أشدّ معصمين رأيتهما في

Twitter: @alqareah

حياتي.

في تلك الأثناء، تناهى إلى سمعنا خفقُ خفّين يسيران في الرّواق ودلفَ ناوكي راكضًا.

«عِم مساءً يا جون! هلاّ تظاهرت بأنّك شجرة إجّاص؟»

كان ناوكي يدور حول جون منطنطًا مِثْلَ كلب بوميرانيا اللولو. كان في الثالثة من عمره ويُعاني من الرّبو وصوته دائمًا تشوبه بُحَّة.

«حسنًا، ولكنْ في المرَّة المقبلة».

نهض جون حاملاً ناوكي المتشبِّث بعنقه. كلُّ أولاد مؤسَّسة هيكاري كانوا يحبّونه. لم يسبق أن رآه أحدٌ غاضبًا؛ ولطفه لا حدود له. كان الأولاد يحبّونه تمامًا كما كنت أحبّه أنا أيضًا، وكنّا جميعًا نودّ لو نلمسه. وفيما كان يغادر مبتعدًا حاملاً ناوكي بين ذراعيه، أشرتُ عليه، همسًا، بأن يعتني بمعصمه.

«أجل ولكن متى؟ وليس فقط أن ترفع قدميك في الهواء، بل أن تسير أيضًا علىِ يديك».

وتلاشى صوت ناوكي الأبَحّ مبتعدًا في الرّواق.

Twitter: @alqareah

أشدُّ ما كنت أعجب له هنا، وقتذاك، هو مواقيت وجبات الطّعام. وربّما تأتّى ذلك من أنَّ المطبخ وردهة الطّعام كانا يقعان في طبقةٍ من المبنى تحت الأرض.

الكنيسة ومبنى مؤسَّسة هيكاري، المشيّدان بالخشب على الطّراز الغربي، هما مبنيان قديمان نسبيًّا. ويبدو قدمهما واضحًا في كلِّ لوحِ خشبٍ، في هيكل كلِّ ناموسيَّة وفي كلِّ مربَّع منَ الخزف. فقد زِيدَت على المبنيين ملحقات إضافيَّة بحيث صار المجموع بالغ التعقيد ويصعب، حتّى من الخارج، إدراك تصميمها العامّ. أمّا منَ الدّاخل فهي أكثر تشابكًا حيث الأروقة المتعرِّجة تتوالى إلى ما لا نهاية، تتخلّلها تباينات في علوِّ الأرضيَّة في أكثر من موضع.

إذا سلك واحدنا الرّواق المتعرِّج الذي ينطلق من ردهة الاستقبال في المؤسَّسة، لتبيّن له بغتةً أنّ المكان الذي بلغه هو الطّبقة الأولى. وعندئذ يُطلُّ، من فوق، على الباحة التي تُرى تحت النوافذ.

في آخر الرّواق حُفرت الأرضيَّة بعرض تاتامي،

Twitter: @alqareah

وثبّتت على حافّتها قبضة معدنيّة متينة. فإذا جذبت القبضة ارتفع هذا القسم من الرّواق محدثًا صريرًا حادًّا. وإذا ثبّتت الحلقة بمشبك متدلٍ من السَّقف أصبحَ السّالك أمام فراغ. ومن هناك بداية سلَّم شديد التحدُّر يفضي إلى المطبخ وردهة الطّعام.

كلّ الأولاد كانوا يهوون ذلك السّلّم الخفيّ. حتَّى إذا حانت مواعيد الطّعام انبرى الجميع لرفع فتحة الباب الأرضيّ وغالبًا ما كان يؤدِّي ذلك إلى تدافع وشجارات. ويدلف الأولاد، الواحد تلو الآخر، داخل بيت السّلّم تحت أنظار المدير وممرِّضة المواليد الصّارمة.

كان المقبض الصّدئ الخشن الملمس، وصريف خشب الأرضيَّة العتيق أو رائحة المطبخ الصّاعدة من أسفل الدّرج إلى أعلاه، تذكّرني بـ «يوميّات» آن فرانك. ـ السلّم السِّرِّيّ المخفيّ وراء المكتبة المتحرِّكة، وتصميم الملحق، ونجمة داود الصفراء، والخارطة التي اعتلمت فيها بدبابيس محاور تقدّم القوّات الحليفة التي أنزلت في النورماندي، وجبات الطّعام المضجرة بصحبة بيتر والزوجين ڤان دان وم. دوسيل، التي خلالها يحسب كلّ منهم حركاته وأقواله بدقَّة. ـ ومثل آن كنت أشعر

Twitter: @alqareah

بأنَّ شهيّتي إلى الطّعام تتضاءل كلَّما هَبَطْتُ درجة من درجات السُّلّم الخفيّ.

ولئن كانت ردهة الطّعام في طبقةٍ تحت الأرض فهي لم تكن لا رطبة ولا معتمة؛ لها نوافذ عديدة مطلّة على الحديقة لجهة الجنوب وتتراءى على زجاج غلقاتها أخيلة غيضة الشمال.

ولكنْ هناك أيضًا يبدو القِدَمُ ماثلاً للعيان. المقالي والطّناجر المرصوفة على المجلى قد اسودَّت أطرافها، والخلّاط والفرن والثلّاجة كانت من طراز قديم ولا حسنة فيها إلاّ متانتها، أمّا طاولة المائدة الخشب، الكبيرة، فقد كَسَتها الخدوش وبدت فيها الثّقوب في بعض مواضعها.

كانت وجبة الفطور التي يجتمع خلالها الأولاد، جميعهم، في جوٍّ من الهياج وسط فتات الطّعام، هي المشقَّةُ بعينها في معظم الأحيان. أمَّا وجبة العشاء، فقد جرت العادة أن يتناول الصِّغار عشاءهم، وهم عشرة على الأكثر، قبل سواهم، برفقة أبي الذي ينهض عند الفجر لصلاة السَّحَر، فيما يأكل المتبقّون، جون ورايكو، وهي فتاة في الصفّ الثالث، والممرّضة المناوبة وأمّي وأنا، فيما بعد. ولكنْ حتَّى عشاء البالغين هذا، على طاولةٍ

Twitter: @alqareah

نظيفة، كان يقزّزني.

كانت أمّي هي الأكثر بهجة من بين نزلاء المؤسَّسة؛ وأوفرهم صحَّة وعافية. كانت كثيرة الكلام، وبخاصَّة خلال العشاء. ولم تكن تسعى لإيجاد موضوع للمحادثة من شأنه أن يعني الجميع، بل تسترسل في الحديث، من بدءِ الجلسة حتّى ختامها، عن أمور تعنيها هي وحدها.

لدى سماعي تنفُّسها المتقطّع، كنتُ أسأل في سرّي بكثير من القسوة عمَّا إذا كانت، لفرط ثرثرتها، تكره نفسها أحيانًا.

عندما تسترسل في الكلام لا يبقى أمام الآخرين إلاّ أن يلزموا الصَّمت. ولم يكن يتردّد في أذنيّ إلاّ بعض روابط النَّسق من قبيل «هكذا» و«لكن» أو «مع ذلك»، وجلبة المضغ التي كانت تمازج صوتها أحيانًا.

وكنت أخلص إلى التَّساؤل بشيء من القلق عمّا إذا كانت ثرثرتها المتّصلة سوف تشعر جون والآخرين بالضيق. كنتُ عندها أودّ أن أسحق بين إبهامي وسبّابتي شفتيها اللّتين تتأوّدان مثلَ أسروعين. كان اللّيل يُطبق بحلكته على الحديقة ويستحيل زجاج النوافذ إلى الأخضر الدّاكن، لكنَّ

Twitter: @alqareah

صوتها يواصل، على الدوام، خُطْبَته الصّاخبة. رايكو والممرّضة، في انكبابهما على طبقيهما، تهزّان، بين الفينة والفينة، رأسيهما.

وفي تلك اللّحظة، يكون شعر جون قد جفَّ تمامًا. وكان جسده، حين لا يكون مبتلًّا، يبدو أصغر وأرقّ.

لم يكن جون يتأفّف حين تبالغ أمّي في ثرثرتها. كان يصغي إلى صوتها المتردّد بإلحاح، يوافق بتهذيب، ويأكل بشهيّة، وكما لو أنّه يحثّها على الإتيان بالمزيد، كان يطرح عليها حتّى بعض الأسئلة. وكان صوته يندسُّ برشاقة بين رشقات أمّي التي، إذ تستدير نحوه، تواصل ثرثرتها بحماسة أشدّ.

كنتُ أحدّقُ بوجهه، جانبيًّا، متسائلة كيف له أن يكون بمثلِ هذه الكياسة فيما أنا نفسي يعتمل اللّؤم في كياني. عضلاته، حين يغادر مرقاة الغطس عائدًا إلى المؤسَّسة، تستحيلُ مجدّدًا، ومن تلقائها، ليّنة كملمسِ القطن، ممتصَّةً، على التّوالي، كلّ ما يثير عصبيّتي، سواءَ كان صوت ناوكي الأبحّ، أو فضلات الطّعام الّتي ينثرها الأولاد، أو حتّى ثرثرة أمّي الفائضة عن كلّ حدّ. وبما أنّه مولود من أبٍ

Twitter: @alqareah

مجهول ومن أمٍّ مدمنة كحول، فمن حقّنا السّؤال عن مصدر هذا اللّطف الذي يسمُ شخصيَّته. وكنتُ أتلهَّفُ توقًا إلى الاستحمام في الينبوع الكامن في قعر رقّته، قبل أن أنشّف جسمي بقطن روحه الوثير.

كانت تتناهى، من فوقنا، ضوضاءُ الخطى المتراكضة في كلِّ اتّجاه. كان ذاك ميقات الاستحمام، والأولاد يضجّون فيما بينهم متراشقين بذرور الطَّلْق. وكنتُ أراقب شفتيّ أمّي اللّزجتين، وأنا أغرز عُودَي الطَّعام في دهن اللّحم. ثمَّ أناول جون قنّينة الصَّلصة لكي أسمع منه كلمة شكر، ما من شأنه أن يزيل إحساسي بالغثيان.

كانت ثرثرتها تتواصل، بوتيرة واحدة، إلى أن يضمَّ الحاضرون أيديهم لأداء صلاة الشُّكر.

كان بعد ظهر يوم أحدٍ هانئ. وكان أبواي قد غادرا بغيةَ تسجيل برنَامج دينيّ للإذاعة. رايكو التي تشاركني السّكن في غرفتي كانت منكبَّة على قراءة مجلَّة علميَّة وهي مستلقية على السّرير العلوي من

Twitter: @alqareah

سريرينا المتراكبين. أمّا جون، فعلى غرار كلِّ يوم أحد، كان يتابع دروسه في الباليه. فقد شرع فيها مؤخّرًا بناءً على نصيحة مدرِّبه لأنَّه بذلك يحافظ على رشاقة قوامه وليونة جسده. كنتُ عاجزةً عن تخيّل قوامه خلال حصَّة الرّقص، هو الذي طالما رأيته متوَّجًا بقطرات الماء، لامع العضلات متموِّجها في المياهِ التي تبتلعها. وكنتُ أشعر بالغيرة من أولئك الفتيات الصّغيرات ذات الشّعور المسرَّحة كعكةً عند قمَّة الرّأسِ، والنُّحور المَلْساء المشدودة باللّيوتار الأبيض.

في غياب جون، كان بعد ظهر الأحد ينقضي بطيئًا في أجواء كئيبة.

عندما ينتابني الملل من مراجعة درس الإنكليزيَّة، كنتُ أنصرفُ إلى تقليب صفحات القاموس متريّثة عند الرّسوم التّوضيحيَّة، البسيطة جدًّا لكنْ المفرطة بواقعيّتها والتي تصوّر نورسًا أو إنبيقًا أو أثفيَّتين أو قالب مزبدات.

في الخارج كان الجوّ رائعًا. الشَّمس مشرقة في الأرجاء ناثرةً غبارَها المذهَّب على كلِّ شيء؛ كان ظلُّ أوراق الجنكة ينعكس راعفًا على جدار الكنيسة؛ والنَّسمُ الذي ينسربُ بين ثنيّات السَّتائر

Twitter: @alqareah

يَحْملُ إلينا مذاق الضَّيف الوافد.

«ألن تقومي بزيارتك اليوم؟» سألت رايكو التي كانت لا تزال مستلقية على سريرها، بعد أن استدرتُ بجذعي، من على كرسيّ، نصفَ استدارة.

«لا، ليس اليوم»، أجابت قائلة، من دون أن ترفع عينيها عن مجلّتها.

لقد جاءت إلى هنا منذ ستّة أشهر تقريبًا. أحضروا إلى غرفتي صناديق مليئة حتّى حوافّها بكتب الجيب والملابس المستعملة القديمة نسبيًّا، قبل أن ألمحها واقفةً وراء الباب. كانت أكبر منّي، على قدر من السُّمنة وترتدي نظّارة سميكة جدًّا. وبرغم أنّها كانت لا تزال تلميذة في المرحلة الثانويّة فإنَّ جسمها قد ترهَّل في بعض المواضع كجسمِ امرأة بلغت، منذ وقت، سنّ النُّضوج.

«نهارك سعيد، تشرَّفتُ بمعرفتك».

دخلت الغرفة متمهّلة كأنَّ جسمها الضَّخم يسبِّب لها حرجًا.

كان يندر أن نرى وافدين جددًا إلى مؤسَّسة هيكاري في مثل سنّها، فمعظم الأولاد يمضي هنا سنوات صباه الأولى ثمَّ لا يلبث أن يغادر إلى كنفِ

Twitter: @alqareah

عائلةٍ بالتبنِّي. وكان جون هو الوحيد الذي أصبح في المدرسة الثَّانويَّة وما زال نزيل الميتم.

كان والدا رايكو نزيلين في أحد المشافي النفسيَّة. ولم يكن أمر استشفائهما عرضيًّا، بل ناجم عن اضطراب أساسيّ، لا أمل بشفائه. ولم تكن لهما، عمليًّا، أيَّة فرصة في مغادرة المصحَّة ذات يوم والعودة إلى حياتهما الطبيعيَّة.

«إن لم يرك أبواك اليوم فسوف يحزنان».

كنتُ أعلم أنَّها لا تحبِّذ ذكرَ والديها تكرارًا، وكنتُ أتحدّث عنهما باستمرار. فكلّ الأولاد الذين يؤويهم الميتم لديهم من المآسي ما أستطيع وصفه، غير أنّي كنت أجد في حال هذين الأبوين اللذين يعانيان من مرض عقليّ أسوأ ما قد يطرأ من مآسٍ.

«أكون سعيدةً جدًّا لو أنَّ بإمكانهما أن يحزنا».

قلبت رايكو مجلَّتها وخلَعت نظّارتها وجلست بعرضِ سريرها. كانت عيناها صغيرتين إلى حدٍّ لا نعرفَ معه بالتأكيد، حين تنزع نظّارتها، في أيّ اتّجاه تنظر.

«لا بدَّ أنَّكِ علمت أنّ أبي وأمّي ما عادا قادرين، منذ زمن طويل، على الشّعور بأيّ حزن».

كانت تستخدم أحيانًا عبارات تليق بفتاة مهذَّبة لا

Twitter: @alqareah

تتطابق مع الانطباع الذي تثيره عادة لدى الشَّخص الذي يراها للمرَّة الأولى، وكان هذا الأمر يربكني. «أهذا ما يجعلك تَعِسة؟».

اكتفت رايكو برفّة عصبيَّة من جفنيها بمثابة جواب. إذ لم يكن ممكنًا أن أتخيّل ما قد تشعر به حقًّا بسبب نظراتها الزائغة. وقد يشي محيط شفتيها بابتسامة خفرة، إلاّ إذا آثرت، مهانةً، أن تستدرك عباراتها. هكذا مضت هنيهات في ظلّ صمت صقيعيّ.

«لقد انقطعت الروابط. قالت بغتة كأنّها تتحدّث في سرّها.

ـ الروابط؟

ـ أجل، الروابط التي كانت تربط فيما بيننا نحن الثلاثة؛ انقطعت إلى الأبد».

ورحت أتساءل أيّ جلبة قد تحدثها روابط عائلة وهي تنقطع. أهو لثغ خفيض كما يحدث حين تنزع النّواة من الثمرة؟ أم أنّه انفجار شبيه بتلك التي كانت تحصل خلال دروس التفاعلات الكيميائيَّة؟

راحت رايكو ترمقني من أعلى بَصَرها الحسير. وبدت السُّمنة المتراكمة عند خدّيها وفكّيها وعند أطراف عينيها كأنَّها تُغرقُ مشاعرها. ارتدت نظّارتها

Twitter: @alqareah

مجدّدًا واستلقت مستأنفة قراءة مجلّتها.

لا بدّ أنَّ الجُرْحَ الذي أصابها حين انقطعت الرّوابط قد أصبح مُلتهبًا. أمَّا في حالتي أنا، فلم تكن هناك روابط حتّى عند الولادة. وكنتُ أرى أنَّ تعاسة إحدانا نحن الاثنتين لا تعادلها إلاّ تعاسة الأخرى.

استويتُ في جلستي إلى طاولتي ورحت أدوّن على دفتري مفردات إنكليزيَّة لا أعرف حتّى معناها. ولم تكن ضوضاء الأولاد المتزايدة صخبًا منذ بعض الوقت لتُعَكِّر أجواء الدَّعَة الشّفيفة العائمة فيما بيننا.

لطالما كانت مؤسَّسة هيكاري مكانًا صاخبًا. خليطٌ من الصُّراخ والنَّحيب ووقع الأقدام ينتحي كلّ زاوية فيها، مثلَ الأرواح التي تسكن الأماكن.

في تلك اللّحظة سمعنا طرقات مُلَهْوِجةً على الباب. أجبنا، رايكو وأنا، في وقتٍ واحد، فدخلت ممرّضة حاملة رييه بين ذراعيها.

«إنّنا ذاهبون جميعًا إلى الكنيسة من أجل السّوق الخيريَّة، لكنَّ رييه مزكومة قليلاً وأفضّل أن أتركها هنا. هل لي أن أتركها في عهدتك؟ سألت مستعجلة وهي تهدهد رييه بين ذراعيّها.

ـ بالتأكيد، سوف أُعنى بها».

Twitter: @alqareah

ونهضت لأحملها بين ذراعيّ.

«ألا تودّين أن ترافقيني يا رايكو؟ سألت الممرّضة مخاطبة السّرير العلويّ.

ـ دعوتك لي لطفٌ من قبلك، لكنْ اليوم لديّ أمور أخرى لأنجزها».

رفضت كعادتها وبتهذيب مفرطٍ لا يتواءم وشخصيّتها.

كانت ريبه البالغة عامًا وخمسة أشهرٍ هي أصغر نزلاء المؤسَّسة سنًّا، وقد أُلبست مبذلاً أحمر فوق بربوتة بيضاء، فيما أنفها المزكوم الجاري كأنّه يلمع.

بعد رحيل الأولاد في مجموعة صاخبة تقودها ثلاث ممرّضات، نزلتُ إلى الحديقة حاملة ريبه بين ذراعيّ.

في الحديقة كانَ الظِّلُّ يوحي بقدرٍ أكبر من الطّراوة كلّما ازدادت أشعَّة الشّمس حدّةً، وكلّما ارتسمت على نحو أبرز ظلالُ الدَّرّاجة ذات العجلات الثّلاث، وأصص الزُّهور المثلّمة والأعشاب البرّيّة النّابتة هناك. صناديق قناني عصير الفاكهة غير المرتجعة وصناديق الكرتون الفارغة المزيَّنة برسم الهليون، تتكدَّسُ بلا نسق أو

Twitter: @alqareah

ترتيب بقرب مَدْخَل الخدمة.

شجرة التِّين التي غرست في موضع البئر القديمة ما عادت تثمر تينًا منذ زمن بعيد وقطعت ولم يبق في مكانها إلاّ أكمة تراب.

كانت رييه تلهو بمعزقة صغيرة للأطفال فوق تلك الأكمة. وكنت أراقبها من بعيد، جالسةً على صندوق قناني عصير الفاكهة.

ساقاها الباديتان من تحت المبذل كانتا بيضاوين ملساوين كَتَلعةِ زبدة. لطالما لفتتني أفخاذ الأطفال، على اختلافها الشديد، داكنة البشرة كانت أو مكسوّة بالبقع، ملتهبة بطفح جلديّ ما أو تلفّها الثنيّات لشدّة سمنتها. أفخاذ الأطفال تصبح إيروسيَّة لفرط ما تكون معرّضةً، وتبدو على مقدار مستهجن من العذوبة كأنّها تنتمي إلى كائن حيٍّ آخر.

كانت رييه تغرف ترابًا بمعزقتها التي تحملها بيدها اليمنى، لكي تفرغه في الدّلو الصّغير الذي تحمله بيدها اليسرى. وكانت تكرّر، دونما انقطاع، الحركة نفسها منذ بعض الوقت. وحالما يقع قليل من التُّراب من معزقتها على يدها، كانت تقترب منّي بخطى لا تزال غير ثابتة. كانت ساقاها تجتازان، مترنّحتين، الخطّ الفاصل بين السّماء ذات الزّرقة

Twitter: @alqareah

المتلألئة والظّلّ الهانئ.

تطلق صيحات صغيرة متبرِّمة وهي تمدّ لي يدها التي وقع عليها بعض التّراب. فأنفخُ عليها مربّتةً على راحةِ يدها المتّسخة بالكاد لكي أنظّفها.

كلّ الأطفال في مثل سنّ ريبه لهم رائحة خاصّة بهم. تلك، المعفّرة، الخاصّة بحفّاضات السّلولوز الممزوجة بأخرى دبقة هي رائحة غذاء الأطفال. ورائحة ريبه كانت مميّزة، إذ تُمازج الرّائحتين المذكورتين رائحة الزّبدة الطّازجة المقزّزة، شبيهة بتلك التي تفوح منها حين تُستخرج من الورقة الّتي تغلّفها.

فيما تواصلُ لهوها بالتراب، كانت ريبه تقترب منّي بانتظام كلّ دقيقتين أو ثلاث، لكي أمسح لها كفّيها. وكان ذلك الانتظام على بساطته يدفعني تدريجيًّا نحو شعور جائر. ولم يكن ذلك الشّعور كريهًا إلى حدٍّ يغضبني لأنّه كان يجلب لي نوعًا من الهناءة الخفيَّة. ففي الآونة الأخيرة غالبًا ما كنت أقع فريسة «شعور القساوة» ذاك. وكانت تلك الرّائحة، رائحة الأطفال المميّزة، هي التي توغّلت لانتشاله من أعماق ذاتي كيما تخرجه إلى الضّوء. وكان الألم الغامض الذي ينتابني آنذاك أشبه بمداعبةٍ على

Twitter: @alqareah

صدري، عذبة ومؤاسية.

خلال انصراف رييه عنّي وقد أولتني ظهرها، تواريت خلسة وراء باب الخدمة. ولم تلبث أن عاودت الانهماك بيديها المتّسختين، فأوقعت المعزقة والدلو عند قدميها لكي تتفحّصهما واحدة بعد الأخرى مرارًا وتكرارًا. ثمَّ التفتت نحو الموضع الذي ينبغي أن أكون فيه لتسألني العون. وإذ لاحظت أنّ لا أحدَ هناك خُيِّلَ إليها أنّها تُركت وحيدة، ما أثار نحيبها المميّز كأنَّ إصبعًا ضغطت على زرٍّ خفيّ.

بكاؤها الذي اشتدَّ حتّى بدا موشكًا على التّسبّب بانقصافِ ما داخل جسمها، أشبع «شعور القساوة» عندي. وكم وددتُ أن أراها مجهشةً، أكثر فأكثر، بالبكاء. وكنتُ أشعر بسعادةٍ أكبر كلّما استطعت، كما في ذلك اليوم، أن أتمتّع ببكائها أنا وحدي، فما من شخص آخر قد يحضنها بين ذراعيه ليؤاسيها ويهدّئ من روعها، ولأنّها، أخيرًا، طفلة لا جدوى من أن يُفسَّر لها أيّ شيء.

في حين، يتمكّن كلُّ واحد منّا، ببلوغه سنّ الرّشد، من العثور، في مكانٍ ما، على موضع سرّيّ يخفي فيه حصره، وحدته، خوفه أو حزنهَ، فإنَّ

Twitter: @alqareah

الأطفال لا يُفلحون في إخفاء ما بهم، ويبدّدون كلّ شيء على هيئة بكاء. وكم وددت أن ألحس تلك الدّموع مطمئنة، وفيما أمرّر لساني على ذلك الموضع الحسّاس الهشّ المتقيّح، أن أجرحَ، على نحو أعمق، قلب البشر.

كان الهواء يداعب شعر ربيه الخفيف، ومنذ بعض الوقت والشَّمْسُ طاغية في السَّماء على نحو متمادٍ كأنَّ الزّمن قد توقّف، وربيه تواصل بكاءها بلاَ انقطاع.

ما إن ظهرتُ من وراء الباب راح صراخها يزداد قوَّة وهرعت نحوي وساقاها الأشبه بتلعة الزبدة ترتعدان. وإذ حملتها حاضنًا إيّاها جيِّدًا بين ذراعيّ، راح بكاؤها يستحيلُ زعيقَ غضب وكأنّها تسأل عن سبب تركي لها وحيدة. ثمَّ مَرَّغت صدري بوجنتيها المبلّلتين بالدموع والمخاط، فتغلغلت رائحة الأطفال تلك في ثيابي.

عندما يبكي الأطفال، دائمًا يهرعون للارتماء في أحضان شخص ما، ويودّون أن تضمّهما ذراعان بقوَّة إلى صدر عريض دافئ. ويعلمون جيِّدًا، وإنْ لم يعلّمهم ذلك أحد، أنَّ مثل هذا قد يهدِّئ روعهم في ظلِّ أفضل الشُّروط. وكانت تلك الوقاحة

Twitter: @alqareah

الطّفليَّة تجعلني أشدّ قساوة.

أَوَيُعقل أن تكون لرغبتي في أن تضمّني عضلات جون على مرقاة الغطس، هي أيضًا، صلة بتلك الغريزة الوقحة التي يعرفها حتّى الأطفال؟

ألقيت نظرة على آنية بيزين الخزفيَّة المهملة عند طرف الغيضة المجاورة. كانت في البداية تستخدم كديكور عند طرف أحد أروقة المؤسَّسة. ولكن منذ أن سقطت، خلال هزَّة أرضيَّة، وتشقَّقت، أُهملت هناك. كانت عبارة عن جرَّة كبيرة يصل ارتفاعها إلى مستوى نحر رجلٍ بالغ. كنتُ واقفة قبالة الجرَّة وأنا أفرك ظهر ريبه براحتي. رفعت لوحة الخشب المحطَّم نصفها والتي تستخدم كغطاء لها وأنزلتُ جسد ريبه برفق في داخلها.

كنتُ أودّ أن أسمع المزيد من بكاء الأطفال. كنتُ أودّ أن أتذوَّق كلّ أنواع البكاء.

ثنت ريبه ساقيها كأنَّها أصيبت بتشنّجات مباغتة وتشبَّثت يائسة بذراعيّ. كانت هَلِعَةً.

«اطمئنّي. ليس هناك ما يخيف».

وخلَّصتُ ذراعيّ من قبضة أصابعها الرّقيقة.

كان داخلُ الجرَّة معتمًا وباردًا. وراحت ريبه تتخبَّط بعنفٍ وتصيح بأعلى صوتها، مستنفدة كلَّ

Twitter: @alqareah

الطاقة التي يقدر عليها جسمها. وبعد أن تردَّدت صرخاتها بين الجنبات الداخليَّة لجرَّة الخزف، صارت صرخة مدويَّة واحدة تسيل بطواعية في داخلي مثل معدنٍ مصهور. وكنتُ ممسكة بفوهة الجرَّة بثبات لكي لا تهوي، فيما أراقب بهدوء كلّ المجهود الذي تبذله للخروج منها.

منذ ولادتي في معهد هيكاري، لم يمض يوم واحد من دون أن أسمع أحدًا يبكي. ففي هَرْج المزاح والشّجار أو صيحات الغضب، هناك دائمًا صوت بكاء. ولطالما حاولتُ، عبثًا، أن أتآلف معها. ذلك أنّي كنت يتيمة لا يرغب أحد في تبنِّيها. وكنتُ الوحيدة من بين الأيتام التي ليس بإمكانها أن تغادر المعهد.

كان بكاء رييه الهستيري، اليوم، يجعل مزاجي رائقًا على نحوٍ خاصّ. كأنَّ يدين خبيرتين تدلّكان جسدي، يدين مميَّزتين، واثقتين؛ يدين باردتين قليلاً، بارعتين حينما تؤاسيان.

لم أكن أسمع شيئًا إلاّ صراخ رييه. كانت تبسطُ ذراعيها بكلِّ ما أوتيت من قوَّة لكي أحملها مجدَّدًا.

«هلاّ بكيتِ قليلاً بَعْد؟»

مُسارَّة نفسي تبدَّدت داخلَ الجرَّة. أسندتُ ذقني

Twitter: @alqareah

إلى حافّة الفتحة ورحت أراقب يديّ ربيه المومئتين، المرتعشتين، مُستدركة الضّحك المتدفّق من حلقي. ولبثتُ مُطوّلاً مُتمتّعة بدموعها.

في تلك اللّيلة، وبعد أن استغرقت في نوم عميق، استيقظت فجأةً على نحوٍ مباغت، ومن دونَ أيّ سبب ظاهر، لم أشعر بحرٍّ شديد، ولم أرَ حلمًا مكدّرًا. كان ذهني صافيًا كأنّي لم أكن غارقة في نوم عميق. وحدها حواسّي كانت مشعَّة في شبهِ العتمةً الغامرة.

كان السّكون مخيّمًا حتّى خِلْتُ أنّي أسمع التنفُّس المنتظم للأولاد النائمين في الجهة المقابلة من الباب. وأيضًا رايكو بدت غارقة في سبات عميق. تقلَّبت فجأةً وراح السّرير يهتزّ على ركائزه. قرَّبت المنبِّه المتروك بقرب سريري: كانت الساعة الثانية فجرًا.

لم أنم سوى ساعتين أو أقلّ، ومع ذلك أشعر بأنّي منتعشة كأنّي نلتُ قسطًا وافيًا من الرّاحة. وبدا

Twitter: @alqareah

لي أنّي قادرة على حلّ أيّ معادلةٍ مهما بلغ تعقيدها، أو على ترجمة أيّ نصّ إنكليزيّ مهما بلغت صعوبته. وما كنتُ لأصدّق أنَّ السّاعات التي تفصلني عن الصّباح بمثل ذلك الطّول.

في تلك اللّحظة، تناهت إلى سمعي، في غمرة السّكون الذّائبِ في العتمة، جلبة مياه خافتة. جلبة مسموعة لقطرات متراطمة. جلبةٌ محسوبة قد تتبدّد إن لم أصغ جيّدًا. وفيما كنت أرهفُ سمعي متخيِّلة قطرات الماء العذب، شعرتُ بأنّي في حالٍ أشدُّ افتتانًا.

غادرت سريري لكي ألقي نظرةً عبر النافذة. كان كلُّ شيء ساكنًا. كلُّ شيء غارق في سباته: شجرتا الجنكة، وإرشاد الأسبوع، والسِّلسلة الصدئة التي تبقي البوّابة مفتوحة. وحدها جلبة الماء البعيدة تتردَّد في أذنيّ. خرجتُ من الحجرة بصمت مستهديةً إيقاعه.

وبما أنَّ قرص الدَّرج لم يكن مضاءً إلاّ بلمبة نيون واحدة فإنَّ الرّواق لم يكن مضاءً أكثر من الحجرة. أبواب حجرات الأولاد الأربع كانت مغلقة، ساكنة. وبلاط الأرضيَّة الذي يلتصق بباطن قدميّ الحافيتين كان باردًا.

Twitter: @alqareah

كان صوت المياه يزداد وضوحًا كلّما هبطت السّلّم، وبلغت نهاية الرّواق الأطول في معهد هيكاري، ذاك الذي يفضي إلى حجرة الطّعام تحت الأرض. وسط نطاق الظّلّ الذي يَمْتَدُّ قُدُمًا بدت بقعة مُنارة بضوءٍ خافت يتناهى منها صوت المياه. فأدركت على الفور بأنَّ جون هناك.

كان يغسل ملابس السِّباحة خاصَّته في المغسلة ذات الصَّنابير الأربعة قبالة المراحيض.

«ماذا تفعل هنا في عزّ اللّيل؟ سألته محدِّقة بيديه المبلّلتين المكسوّتين برغوة الصّابون

ـ أرجو المعذرة. هل أيقظتك؟»

حتَّى هناك في الظُّلمة، في عزِّ اللّيل، كان صوته مذهلاً بعذوبته، ناضحًا بالصدق. ولم يبد عليه النعاس مطلقًا.

«عندما أغسل ملابس السِّباحة خاصّتي في اللّيل، كما هي الحال الآن، أركِّز بهدوء على غطساتي.

ـ غطساتك؟

ـ أجل. أفكّر بوتيرة عَدْوِ الاندفاعة على المرقاة، باللّحظة التي أنطلق فيها قافزًا، أو أيضًا بتماسّ جسمي وسطح الماء، وبأمور مثل هذه».

كان يتابع حديثه فيما يداه منهمكتان بغسل

Twitter: @alqareah

ملابسه.

«إن التَّمرُّس بتصوُّر الحركة المثاليَّة مرارًا، يفضي إلى أداء الغطسة كما تخيّلناها».

كان يغسل ملابسه بعناية، إذ يفركها على بلاط المغسلة ويُقلّبها. وكنت أعشق أصابعه التي تتحرَّك بحيويَّة. وحين أكون بصحبته لا أكفّ عن السُّؤال لِمَ ينبعث منه ذلك المقدار من النقاء.

«أنتَ تهوى الغطس، أليس كذلك؟».

لم يحضرني سوى ذلك السُّؤال.

«أجل، أهوى الغطس».

كانت أصداء الكلمات التي نطق بها لتوّه تتردّد في داخلي، متمادية في تلاشيها. وكنت أقول في سرِّي إنَّها لو كانت موجّهة لي فقط، لهدّأت من روعي بالتأكيد.

«لأنّي في اللّحظة التي أغطس فيها أنسى كلّ شيء لبضعة أعشار من الثّانية».

صحيح أنَّ جون يصبح أجمل ما يكون بين اللّحظة التي يقفز فيها عن المرقاة وبين اللّحظة التي يمسّ فيها جسمه الماء. فكلّ شيء فيه، حتّى كلماته وحركاته البالغة الرقَّة، يهوي معه حين يهوي مجلَّلاً بعضلاته الفاتنة. ويُسرّ لي همسٌ في أعماق ذاتي

Twitter: @alqareah

أنّني، لهذا السبب، أراقبه دائمًا في حوض السِّباحة.

خيالانا بملابس النّوم ينعكسان في المرايا الأربع. وبدا المنزل خلوًا من الحياة إلاّ الهواء الذي يحيط بنا. في الجهة الأخرى من النّافذة كما عند نهاية الرّواق، كلُّ شيء كان حالكًا إلاّ هنا حيث تركّز النّور؛ فانتابني شعور بأنّنا، نحن الاثنين، نشهدُ لحظة متميّزة في حياتنا.

كانت منامة جون مبتلّة من الأمام بسبب رذاذ الماء المتطاير. وما كنت لأجد مشقّة في تخيّل استدارات عضلاته البارزة، ولو محتجبةً تحت المنامة الفضفاضة، ولبثتُ مثل طفلة مذعورة راغبةً في أن تجد الأمان في كنف عضلاته.

«سأساعدك».

خاطبته بحماسة لكي أغيِّر مزاجي السّائد، لأنّي حسبت أنّني إذا مكثت صامتة لفترة أطول، فسوف تستبدّ بي تلك الرّغبة المتنامية في أعماقي.

«شكرًا».

فتحت صنبور الماء الأقرب لأشطف ملابس السّباحة المشبعة برغوة الصابون. وكما لو أنَّ الجلبة الصاخبة من شأنها أن تفسد تلك اللّحظة المميَّزة

Twitter: @alqareah

وتبدِّدها، جعلتُ الماء في الصّنبور لا تجري إلاّ قليلاً. كانت ملابس البحر كلّها عبارة عن خمسة سراويل، وأذكر كلّ واحد منها. فهناك السّروال الذي اشتراه يوم انتسابه إلى النّادي، وذاك الذي وفّره له النّادي نفسه خلال مسابقات العام المنصرم، وذاك الذي قدّمه له الأولاد منذ وقتٍ قريب لمناسبة عيد مولده. إنّي أعرفها جيّدًا.

إنّ وجودي بقربه كلّ هذا القرب بحيث أسمع تردّد أنفاسه سُرعان ما أغرقني في مزاج أشبه بالاكتئاب. ولكن، ربّما كنت، ببساطة، سعيدة لأنّي أحمل بين يديّ سرولة السِّباحة التي، في العادة، تكسو عضلاته. ورحت أستذكر طفولتي عندما كنّا ننصرف إلى اللّهو ببراءة غير مكترثة بجسده.

«أتذكر ذلك اليوم عندما تراكم ثلج في الرّواق؟».

طرحت عليه السّؤال مُستغرقةً في تأمّل رغوة الصّابون الجارية بالماءِ على بلاط المغسلة.

«ثلج؟ في الرّواق؟».

استدار جون قليلاً نحوي ليرمقني بنظرات استهجان.

Twitter: @alqareah

«أجل. حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريبًا. في ذلك اليوم، كنت قد رأيت حلمًا مسلّيًا جدًّا واستيقظت في ساعة مبكرة؛ ولاحظت، حين ألقيت نظرةً عبر النّافذة، أنَّ الثّلج يغطّي الأرض؛ كان كلُّ شيءٍ أبيض كما لم أرَ من قبل. في حجرات الأولاد كان الجميع نيامًا. قفزت من سريري كاتمةً صيحة المفاجأة وهرعت لكي أهبط السّلّم مسرعةً. كان الرّواقُ مكسوًّا بالبياض من أوّله إلى آخره، وقد تراكمت الثلوج فوقه.

ـ أحقًّا؟ لا أذكر شيئًا من ذلك. ولكنْ كيف وصل الثّلج إلى الدّاخل؟

ـ كانت هناك شقوق في السّطح؛ ومن هذه الشّقوق تسرَّب الثّلج إلى الداخل كأنّه مطر. كما أذكر أنَّ شخصًا ما جاء لإصلاح السّطح بعد ذوبان الثّلج. أما زلت لا تذكر؟».

أشار جون برأسه نفيًا قبل أن يردف قائلاً:

«مع أنّه يبدو لي أنّني سأستعيد هذه الذّكرى عمَّا قريب.

ـ ابذل جهدًا، هيّا. إنّها لخسارة حقًّا أن ينسى المرء مثل هذا المشهد. لقد كان منظرًا غريبًا جدًّا. ثلجٌ داخل المنزل، ألا ترى المفارقة؟ لم

Twitter: @alqareah

يَدُسْه أحد بعد، وبياضه الناصع باهر مثل الكريستال».

بعد أن عصرت جيّدًا السّروال الأوّل الذي كنت شطفته لتوّي من رغوة الصّابون، فردته أمام المرآة. فسارع جون إلى وضعِ سروالٍ آخر مشبع بالرغوة، بين يديّ.

«كانت دهشتي كبيرة فبقيتُ واقفةً عند طرف الرّواق، مذهولةً لا أدري ماذا أفعل. كان السكون تامًّا، فخيّل إليّ أنّني الشّخص المستيقظ الوحيد في العالم بأسره. لكنّي لم أكن وحدي. كان هناك شخص آخر يتأمّل المنظر الرّائع المكسوّ بالثّلج.

ـ من هو؟».

شعرتُ بصوته ونظرته يرتطمانِ بكتفي.

«أنت. أنت، يا جون. كنتَ قد لحقت بي من دون أن أنتبه. وبدا لي أنّك كنت واقفًا هناك منذ وقتٍ طويل. وكنتَ مرتديًا منامتك الزّرقاء المزيّنة برسوم النّحل والدّببة الصّغيرة».

توقّف جون هنيهة، قبل أن يقول:

«أكنت ترتدين منامتك ذات الدّوائر الصّغيرة؟

ـ أجل. كنّا، نحن الاثنين، واقفين بمنامتينا، مثل اليوم».

Twitter: @alqareah

فَرَدْتُ السّروال الثّاني قبالة المرآة.

كانت عذوبة الثّلج وبرودته تتسرّبان إلى منبتِ قدميّ. ففي تلك اللحظة أيضًا شهدنا، وحدنا، نحن الاثنين، لحظة مميَّزةً في حياتنا. وخيِّل إليّ لوهلةٍ أنّني أحلم بمكانٍ بعيد جدًّا من الواقع، ولكن مع الإحساس الحادّ بملمس الثّلج وبي، أنا، لاهية مع جون، كنتُ أشعر بالسعادة لأنّي وحدي بصحبته في مكان مُميَّز. وربّما سعادتي تلك لأنّي كنت، أكثر بكثير من اليوم، لا أزال أنتمي إلى عالم الطّفولة، لم أختبر بَعْدُ لا الحزنَ ولا القلق.

«في البداية اقترحت عليّ أن أغطس. ولمّا تراجعتُ إلى الوراء لأنّي خائفة قلت لي إنّه ليس هناك أيّ خطر وأنّ الأمر لا بدّ أن يكون مذهلاً قبل أن تهوي على الثّلج بطولك. وإذ ذاك انطبع شكل جسمك في الثّلج على نحوٍ واضح. وجعلنا نضحك معًا، أتذكر؟ كنّا نضحكُ بصوت خفيض لكي لا يفاجئ لهونا السّرّي أحدٌ فيفسده علينا. ثمّ دفعتني بيدك لكي أغطس أنا أيضًا. لم أصب بأذى بل دخلت ندف الثّلج إلى عينيّ.

ـ لقد لهونا جيِّدًا في ذلك الصّباح.

ـ أجل، بالفعل».

Twitter: @alqareah

كانت نبرة جون توحي بأنَّ مثل هذا اللّهو أبدًا لن يتكرّر. وكان محقًّا. إذ كان من الصّعب أن يتخيّل أحدنا ما هي الأشكال التي ستتّخذها علاقتنا في المستقبل. ولطالما كنت أشعر بالكآبة حين تخطر ببالي مثل هذه الأمور.

لم أكن أحسب أنّه سيكون متاحًا، بمضيّ عشرة أعوام، أن نستذكر بشيء من الحنين تلك الليلة التي غسلنا فيها معًا سراويل السّباحة. كان أولاد معهد هيكاري يرحلون تباعًا. ويتركونني. واقفةً وراء نافذة حجرتي، شهدتُ رحيلَ عددٍ منهم لا يحصى. فليس مُستحيلاً أن يكون التّالي الذي سيوليني ظهره مرتديًا ملابسه الجديدة ومُنعطفًا من أمام «إرشاد الأسبوع» تحتَ أنظار عائلته الجديدة بالتّبنّي، هو جون بالذّات. ولذا كنتُ أريد أن أستمتع الآن بقدرتي تلك على استذكار مشهد نمتلكه معًا.

كنتُ أغسل السّراويل بأقصى ما استطعته من عناية، وكأنَّ انكبابي هذا من شأنه أن يُطهِّر شعور القساوة الذي استبدّ بي طيلة بعد الظُّهر وجعلني مستمتعةً ببكاء ريبه. فبصحبة جون يكون فرضًا عليَّ تجاه نفسي أن أتحلّى بمثل النقاء الذي ملكته عندما وجدت نفسي بجواره مفتونة بالثّلج الذي تراكم في

Twitter: @alqareah

الرّواق. ذلك أن جون ما كان ليغطس إلاّ في مياه شديدة النّقاء. ولأنّي كنتُ أريد أن يعبرني من دون أن يعكّر صفحة مياهي.

عندما انتهينا من استعادة الماضي، لم يجد واحدنا ما يقوله للآخر. فقد حلّت بيننا، جلبةُ السّاعات المتدهورة بدل صوت المياه التي واصلت جريانها في خيطٍ رفيع حتّى الفجر.

توارى الرّبيع بلمح البصر، وحلّ المطرُ فجأة؛ المطر الذي راح ينهمر كلّ يوم. مطرٌ رَذَاذٌ، مثل حفيف جناحي حشرة، يُبلّل نباتات حديقة المؤسَّسة. وكانت النّهارات تتطاول في غمرةِ ذلك المطر الكئيب المتقطّع الذي لا ينتهي. في المدرسة كنتُ، بالإجمال، لا أصحو من شرودي ولا أنتبه من سهوي إلاّ لكي أتبسَّم لجون حين ألتقيه، بمحض المصادفة، في مخزن القرطاسية أو في المكتبة. وعندما ينتهي دوام المدرسة أهرع مباشرةً إلى المدرّج حيث حوض السّباحة. وما كنت أشعر

Twitter: @alqareah

بأنَّ حواسّي قد انتبهت مجدّدًا إلاّ حين أجدني جالسةً عند المنصّات.

كانت الحياة في المؤسَّسة، هي أيضًا، تجري بإيقاع رتيب ومقزِّز. فهناك دائمًا ضوضاء الأولاد الفائضة، والعشاءات برفقة أمِّي المستثارة الثرثارة، ورايكو اللحيمة مستلقية على الطّبقة العلويَّة من سريرنا.

منذ بدء تساقط الأمطار، غزت العفونة، بأنواعها كافَّة، ردهة الطّعام في الطّبقة السّفليَّة من المؤسَّسة. فكان يُعثر في اليوم التالي على خبز وجبة العَصْر الخفيفة الذي خلّفه أحدهم، مَكْسُوًّا بحبيبات زرقاء، فيما تكتسي فطيرة التّفّاح التي أعدّتها الطّاهية بطبقة بيضاء في غضون ثلاثة أيّام. تلك الأطعمة ذات الطّابع الهزليّ المرميَّة في سلال المهملات البلاستيكيَّة أيقظت فيَّ نزعتي إلى القساوة. إذا احتجزت ربيه في سلّة مهملات، فهل ستنتحبُ فزعًا كما فعلت في المرَّة السّابقة؟ هل ستبكي وتبكي حتّى تبلّلها الدّموع والعرق والمخاط إلى أن تغطّي العفونة فخذيها المخمليتين مِثْلَ زغب رُشّ بذرور ملوَّن؟ وكلّما رأيت سلّة المهملات في الطّبقة السّفليَّة كنتُ أتخيَّل أنواعًا من العفونة تنمو

Twitter: @alqareah

على فخذيها.

ذات يوم أحد، وجدتني، في فترة بعد الظّهر، في صالة الألعاب. ثلاثة أطفال لم يبلغوا بعد سنّ ارتياد الحضانة كانوا يلهون وسط الألعاب الكثيرة. وكانت رييه في عدادهم.

كان إعصار مدمِّر قد اجتاز بحر اليابان في غير موسمه، ولم تكن تمطر بل كانت الرِّياح عاتية. كنتُ أصغي إلى وجيب العاصفة، جالسة على كرسيّ بقرب النافذة.

حصل شجار حول لعبة، فَجَعَلَتْ رييه تنتحب. ابتعدت عن النافذة لكي أحملها بين ذراعيّ. كان ما يُشبه الفواقَ يَقطع نحيبها حين دسَّت أصابعها في شقٍّ من صديري بين زرَّين. فمن عادتها، إذا شاءت أن تداعب أحدًا، السّعيُ بأصابعها الخرقاء بحثًا عن صدرٍ مرحاب.

«لا تلعبا في الخارج، اليوم. فسوف تطيِّركما الرِّياح»، قلت للطّفلين الآخرين قبل أن أصطحب رييه إلى حجرتي.

كانت رايكو قد ذهبت لزيارة والديها في المصحَّة النفسيَّة التي تبعد سفر ثلاث ساعات بالقطار. أمّا رييه التي استعادت في الأثناء صفاء مزاجها فقد

Twitter: @alqareah

كانت تبذل ما بوسعها لكي تحصل، من بين أشياء كثيرة مكدَّسة تحت طاولة رايكو، على شرائط تسجيل باللّغة الإنكليزيَّة، وتذكارات جلبت خلال رحلات مدرسيَّة، أو حتّى مصباح جيب كهربائيّ فَسُدَت بطّارياته. تراها نسيت كم أبكيتها حين احتجزتها داخل خزفيَّة الحديقة؟ كنت أسأل نفسي محدِّقًا بظهرها.

كانت النّباتات التي تسوِّر المؤسَّسة، تُحدثُ، في اهتزازها العنيف، ضوضاء مخيفة. فالرِّياح التي تنصبّ علينا تزداد عنفًا وجعلت تغطّي الأرجاء جميعًا.

كانت رييه، نصف متوارية تحت طاولة رايكو، تأخذ كلَّ ما تقع عليه يداها وتضعه في فمها. كانت فخذاها اللّتان تذكّران بالزبدة ملتصقتين بالأرضيَّة. لطالما كنتُ أنظر إلى الأطفال في مثل سنِّها على أنَّهم كائنات على حدة، فتكون نظرتي إذ ذاك شبيهة بتلك التي ألقيها على حيوانات غريبة في حديقة للحيوان. أودّ أن ألاطفهم، أن أبذل لهم حنانًا، لكنّي لا أدري كيف أفعل. على الضّدِّ من جسد جون على مرقاة الغطس الذي كان يريحني، غريزيًّا، فإنَّ الأطفال الرُّضَّع والحيوانات

Twitter: @alqareah

الإكزوتيكيَّة تجمّد الدّم في عروقي.

لمحتُ علبة كرتون صغيرة بارزة من طرفها، في دُرج مكتبي المفتوح. كانت فضلة طبقٍ من الكرنب بالكريما كنتُ تناولته قبل ثلاثة أو أربعة أيَّام.

وفي ذلك اليوم أيضًا، كان المطرُ يتساقط رذاذًا ناعمًا منذ الصّباح. وكانت سِتارة المطر المُسدَلة تلقي بظلِّها المعتم على المدرَّج المحاط بممرٍّ غُرِسَت فيه أشجار حور؛ كنتُ قد سرتُ مُستغرقةً في التفكير بمقدار صعوبة وشكل الغطسة التي تمرَّن جون على أدائها في ذلك اليوم. لم يكن أحدٌ هناك لا في ملعب كرة القدم، ولا في ملعب البايسبول، وكان وحده يتناهى إلى سمعي هدير السيّارات العابرة من وراء أشجار الحور.

دكّان حلوى جديد كان فتح أبوابه عند مدخل المدرَّج، في الجهة المقابلة للممرِّ الخاصّ بالمشاة؛ كأنَّه مُسْتَنْبَت للمزروعات الغريبة بجدرانه وسقفه الزّجاج. كانت واجهاته الزّجاجيَّة شفيفة بحيث يتسنّى للعابر أن يرى بوضوح ملاوق زينة الكعك وجرابات الشَّانتيي وقفّازات الجلد البادية في المطبخ خلف واجهة الثلّاجة. وكانت أكاليل من الورود وُضِعَت على جانبي المدخل لمناسبة الافتتاح.

Twitter: @alqareah

لم أدرِ بالضبط لِمَ قرَّرت أن أدخله. لم أكن جائعة. ببساطة، لم تستطع عيناي أن تقاوما إغراء ذلك البريق كلَّه المكتنف بأجواء المطر الرّماديَّة كأنَّها ستارة من سخام. أو ربَّما تخيّلت في تلك الواجهة التماع صفحة المياه في حوض السّباحة.

الدّاخلُ كان مفرطًا في إنارته. ولم يكن هناك أحدٌ سواي، فقد كان موعد الإقفال وشيكًا ولم يتبقَّ الكثير من قطع الحلوى في الواجهة المبرّدة. كان الحاجز الزّجاجيّ متألّقًا بلمعانه.

كل قطع الحلوى بلا استثناء كانت أشبه بمصنوعات ورقيَّة دقيقة؛ انحنيتُ لأتفحّصها واحدة تلو الأخرى. بائعة شابَّة بمئزرها الموشَّى بالدانتيلا وقفت متبسِّمة ريثما أفصح لها عن طلبي. وإذ أشرتُ بإصبعي إلى قطع ثلاث من الكرنب بالكريما بدت لي مهملة في الزّاوية اليسرى من الواجهة، قلت لها:

«أعطني هذه القطع الثّلاث، لو سمحت».

حملت الفتاة ذات الدّانتيلا القطع البائسة الثّلاث ووضعتها برويَّة مفرطة في علبةٍ غلَّفتها جيِّدًا قبل أن تلصق عليها بطاقة وتربط شريطًا من حولها.

لم يكن أمرًا يسيرًا أن أحمل العلبة إضافة إلى

Twitter: @alqareah

المظلَّة ومحفظة كتبي. وكانت العلبة الصّغيرة تلك مصدر إرباك لي في طريق عودتي إلى المؤسَّسة.

أكلتْ كلٌّ منَّا، رايكو وأنا، قطعة منها. بعد أن شكرتني على نحوٍ مفرطٍ في التّهذيب على جري عادتها، التهمت رايكو قطعة الحلوى بعصبيَّة، جاثمةً فوق سريرها. وكنت تركت القطعة الثّالثة في العلبة التي وضعتها في الدُّرْج السّفلي لطاولة المكتب.

كلّما فتحت الدُّرج كنت أرى العلبة التي ليست في مكانها الطّبيعي بين الكُدْسان، والدّبّاسات أو رزم الفوتوكوبي، غير أنّي كنت قد نسيت تمامًا قطعة الكرنب بالكريما المتبقيَّة.

حملتُ العلبة بكثير من الحيطة كأنّني أقلِّبُ جسمًا هشًّا. كنتُ أتوقَّعُ شيئًا أَثْقَل وفاجأتني بوزنها الخفيف، فتحتها وظنّي أنّني سأجد العفونة مستشرية غير أنَّ قطعة الكرنب بالكريما كانت قد بقيت، في الظّاهر، على حالها، فرقاقتها ما زالت على انتفاخها ومحتفظةً بلونها الملوَّح.

«رييه تعالي. لديّ شيء لك».

استدارت نحوي ولمَّا أدركت ما الذي تحويه العلبة، هَرَعَت إلى ركبتي بكلّ ما في براءتها من

Twitter: @alqareah

حماسة.

حين قطعتها إلى اثنتين أدركتُ، أخيرًا، ما بها. ذلك أنَّ نكهة البيض والسكّر والحليب قد أصبحت محمّضة قليلاً، أشبه برائحة الليمون الهنديّ قبل أن ينضج. عندما غمَّست ريبه شفتيها في الكريما، فاحت رائحة حموضة في الأرجاء. وإذا كان ذلك كافيًا لكي يشعرني بالغثيان، فإنَّ شفتيّ ريبه الساذجة، ولسانها وحَلْقها قد سارعت إلى ابتلاع الكرنب. وكم اسمتعتُ بالحماسة التي أبدتها وهي تفعل.

«هل هو لذيذ؟».

غَلَب عزيف الرِّياح على صوتي.

دعكتُ علبة الكرتون وبداخلها نصف قطعة الكرنب الذي لم تأكله ريبه، ورميتها في سلَّة المهملات البلاستيكيَّة في الطّبقة السّفليَّة.

كان عصف الرِّياح على أشدِّه خلال اللّيل، وساده جوّ يصعب فيه التّنفُّس فَعَجزتُ عن النوم. ما

Twitter: @alqareah

أن يغلبني النّعاس حتّى ينتشلني الحرّ الخانق من أحلامي. إنْ فتحت النافذة تسبَّبت الرِّياح المحمّلة بالرّطوبة بالمزيد من التعرُّق. فور عودتها من المصحَّة النّفسيَّة استمتعت رايكو بقضم ثلاث أو أربع قطع من الشّوكولاتة الأجنبيَّة الصنع والتي حصلت عليها تقدمة من والديها، من دون شكّ، قبل أن تغفو على الأثر من دون أن تغسل أسنانها. وكان تنفُّسها البليد يبعدني، أكثر فأكثر، عن النّوم.

في اللّحظة التي هممتُ فيها بإلقاء نظرة على المنبِّه لأعرفَ كم كانت السّاعة، سمعت وقع خطواتِ شخصٍ بالغ في الرّواق. فُتح باب في مكان ما ثمّ أغلق وسمعت همساتٍ قلقة. أبعدت غطائي الدّبق بركلة من قدمي وفككت زرًّا إضافيًّا من ياقة منامتي. وكنتُ أحاول، محدِّقة بأربطة الفراش العلوي، أن أدرك معنى تلك الهمسات. فقد هجرني النّعاسُ تمامًا واستثيرت أعصابي حتّى التوتّر.

بعد ذلك بقليل، ميَّزت صوت أمّي وسط الضّوضاء. فعلى جاري عادتها، كانت ترطن في الخلاء الفسيح، حادَّة الصّوت، مفرطة في حماستها وثقتها. وبفضل ذلك الصّوت الذي غالبًا ما

Twitter: @alqareah

أضجرني، فهمت كلّ شيء.

واستعدت في ذاكرتي، كأنّه حلمٌ رأيته فيما مضى، رخاوة قطعة الكرنب بالكريما التي سحقتها في علبتها والنحو الذي اختلطت فيه ببقيّة المآكل المبتذلة التي احتوتها سلّة القمامة. كانت ذكرى بعيدة وغائمة، ولن يكون مستهجنًا أن أنساها ذات يوم.

غير أنَّ الضّوضاء في الخارج تفاقمت حتّى بات من المستحيل تجاهلها. حتّى رايكو التي تنعم عادة بنوم عميق استيقظت وأطلّت عليّ من فوق سريرها متسائلة:

«ما الذي يجري؟».

نهضتُ متجاهلةً سؤالها. كنتُ أشعر بأنَّ مواضع من جسمي تتصلّب فجأة وعلى نحوٍ غريب؛ فلا بدّ أنّني أُنهكتُ طوال تلك السّاعات التي لم أتمكّن خلالها من النّوم وكنت أحتاج فيها إليه.

فتحت الباب فوجدتني في الرّواق الغارق في الإنارة لأنَّ اللّمبات كلّها قد أضيئت حتّى عجزت عن إبقاء عينيّ مفتوحتين لشدّة ما آلمتاني.

«أيا ـ شان، أيا ـ شان، إنّه أمر مريع! لقد أصيبت ريبه ـ شان، بنوبة إسهال حادّة مصحوبة بنوبات قيء

Twitter: @alqareah

وقد خارت قواها كلّيًا. إنَّها مصابة بحمّى، وشفتاها جافّتان، واكتسى جلدها بطفح غريب. لا أدري ما الذي جرى، فعلاً. أردت أن أستدعي لها سيَّارة إسعاف، لكنّ والدك قال إنَّه من الأفضل إخطار البروفسور نيشيزاكي، تعرفينه جيِّدًا، عيادته قرب المحطَّة وهو أحد رعايانا المخلصين. فهو يرى أنّنا بهذه الطّريقة نكون أوفر حظًّا في أن نحظى بالعناية الإلهيَّة. إنّهم يتّصلون به هاتفيًّا الآن. أكان لا بدّ لذلك أن يحصل في عزّ اللّيل؟ يا لها من حكاية! لم يبق إلاّ أن نتّكل على الله، يا أيا ـ شان[1]».

نطقت بكلّ هذا دفعة واحدة، ضامَّة أذيال منامتها القديمة إلى صدرها. كانت الممرِّضة المناوبة والعاملون الآخرون في المؤسَّسة متحلّقين حولها، يغالبهم النّعاس مذهولين على شيءٍ من القلق. كانت نبرتها وأنفاسها أقرب إلى الحماسة والانفعال وكأنّها تجد الأمر مسلِّيًا. ـ ما الدّاعي لأن تواصلي ثرثرتك في حين أنّي لا أصغي إليك؟ لا تحتاجين إلى هذا المقدار من الشّرح والتّفسير، إنّي أدرك ما جرى بالضبط ـ قلتُ في سرّي وقد غطّيت براحتيّ عينيّ المتألّمتين.

(١) لفظ يضاف إلى الاسم للتحبّب.

Twitter: @alqareah

في تلك اللّحظة ظهر جون عند أعلى السلَّم.
«لقد تمكّنا من الاتّصال بالبروفسور نيشيزاكي. وطلب أن نحملها إليه على الفور». قال قبل أن يدخلِ حجرة الأولاد ويخرج منها، بعد ثوانٍ، حاملاً رييه بين ذراعيه. كانت أشبه برزمة من الخرق المبلَّلة. بقع ورديَّة تكسو وجنتيها وظاهر يديها وفخذيها. كأنَّ الكرنب بالكريما قد سمَّم أمعاءها فولّد تلك العفونة الورديَّة.

هبط جون السّلَّم راكضًا حاملاً رييه بين ذراعيه. لحق به الجميع. كان أبي ينتظر وراء مقود سيّارته عند المدخل. دلف جون إلى داخلها مبقيًا رييه بين ذراعيه.

كان قلقي بشأن جون أضعاف قلقي حيال ما آلت إليه حالة رييه. كنت عاجزةً عن أن أحيد بنظري عن حركاته الواثقة الحيَّة، الواضحة بتلقائيّتها. أكتفي بالتفرُّج على الموقف بشرودٍ ظاهر، وفي حين أنّي السّبب في ما أصاب رييه كان هو يحتضنها بين ذراعيه القويَّتين. كان ذلك فوق طاقتي واحتمالي وكان نقاؤه حرزي الحريز.

حين يطرأ طارئ، مثلاً عندما وقعت في النّهر، أو عندما يطرأ أمرٌ في المطبخ أو حين تنقلب رفوف

Twitter: @alqareah

الأواني جرّاء هزّة أرضيّة، يكون جون موجودًا ويعثر على طريقة لطمأنة الجميع. وكنت لا أكفّ عن سؤال نفسي: لِمَ هو لطيف إلى هذا الحدّ، وكان سؤالي هذا يسبّب لي اكتئابًا.

غلب هدير المحرّك على عزيف الرّياح في تلك اللّيلة.

كانت السّيّارة قد انطلقت وأمّي تواصل صياحها فيما الآخرون يعودون إلى حجراتهم بصمت:

«أخبروني فورًا بما يستجدّ. سأنتظر قرب الهاتف. فإذا تطلّب الأمر أن تنقل إلى المستشفى، يجب أن أعدّ لها حاجيّاتها. لذا، لا تنسيا أن يتّصل بي أحدكما أنت أو جون.

ـ أرجو ألاّ يكون الأمر خطيرًا»، أردفت قائلة إذ استدارت نحوي، غير أنّي أجبتها بهزّة من رأسي غامضة، لأنّي كنتُ أريد أن أفكّر على سجيّتي بجون على مهبّ رياح اللّيل.

طبعًا، أتيت ثانيةً إلى حوض السّباحة. كان

Twitter: @alqareah

يجذبني إليه أكثر من السّابق خصوصًا بعد أن استمتعت بالقساوة حتّى اكتفيت، إذ كنتُ أحسّ أنّ انعكاس المويجات على السّقف الزّجاجي، ورائحة المياه النظيفة، وبخاصَّة جسد جون المبلّل تطهّرني من كلّ شرّ. وأودّ أن أكون بمثل نقائه، وإنْ كنتُ أعلم أنَّ ذلك لن يدوم طويلاً.

في آخر الأمر، نقلت ريبه إلى المستشفى. فبعد أن تقيَّأت كلّ ما بمعدتها، يبدو أنَّها نامت، جامدةً مثل مومياء، ليومين متتاليين. ولدى سماعي الشّروحات المفصَّلة التي روتها أمّي إثر زياراتها اليوميَّة إلى المستشفى لكي تعتني بها، كنتُ أقول في سرّي إنَّ أيّ أثر للكرنب بالكريما الفاسدة قد زال الآن.

ماذا كنت لأفعل لو أنّها ماتت؟ كيف كنت سأتدبّر لنفسي تفسيرًا منطقيًّا لما فعلت؟ لم أكن أدري. لم أكن أفهم من أين تأتي تلك الحاجة إلى الإيذاء. لذلك ربّما كنت أُحدّق بذراعيّ جون وبصدره وظهره، من دون أيّ إحساس بالنّدم فيما تقبع ريبه مريضة تكابد الألم.

كان الدّفء لا يزال دفئًا داخل قاعة حوض السِّباحة. ولم يكن أحد سواي على مدرّج

Twitter: @alqareah

المنصّات. على مقربة هناك حوض المباريات، وأبعد قليلاً حوض الأولاد الذي لا يقارن صخبه بهذا. فقد كان الحوض المخصّص للغطس يضجّ فقط بتكرار الصّدمة الخاطفة التي تثقب صفحة المياه بوتائر منتظمة.

كان سروال جون أزرق غامقًا، مع شعار مدرسته مطرَّزًا على حافّة كمره. كان أحد السّراويل التي غسلناها سويًّا ونحن نستذكر ذلك اليوم الذي غطّى فيه الثّلج أرض الرّواق. كان رطبًا كفاية لكي يلتصق بخصره. وكان جون معتادًا، خلال سيره باتّجاه حافّة مرقاة الغطس، أن يَشدَّ على الرِّباط الملتفّ حول معصميه؛ ثمَّ يتريَّث في تثبيت قدميه في موضعهما.

«قفزة مزدوجة خطيرة ونصف قفزةٍ خلفيَّة من دون استعانة باليدين».

كانت غطسة جميلة. اخترق جسده صفحة الماء عموديًّا ولم يثر، عمليًّا، أيّ رذاذ. فبعد أن مار السّطح قليلاً عادت المياه إلى ركودها.

كنتُ أفضِّل القفزات المستقيمة بلا يدين على القفزات المدوَّمة أو المضمومة. تلك الوضعيَّة، التي يكون فيها الجسم مثنيًّا، بدءًا من الخصر، إلى

Twitter: @alqareah

اثنين، وتكون فيه السّاقان مستقيمتين حتّى طرف أصابع القدمين، تبدو رائعة لأنّ عضلاته كلّها تكون مشدودة بأقصى طاقتها، وجبينه يلامس شظيّتيه، ويديه تمسكان بباطن ركبتيه، ولأنَّ الكلّ يكون غايةً في الأناقة.

عندما تهوي ساقا جون راسمتين ما يُشبه الدّائرة التي يختطّها البركار، كنتُ أستطيع أن أحسّ بجسده داخل جسدي. ينزلقُ بملامسة داخليَّة متمادية، وكان ذلك أكثر حميميَّة ودفئًا ومؤانسةً من مجرّد ضمَّة. كنتُ أعلم ذلك برغم أنَّه لم يضمّني يومًا إلى صدره.

تنفَّستُ الصّعداء وعاودت جلستي شابكة ساقيَّ. كان باقي أعضاء النّادي يغطسون تباعًا، وخلال الفاصل بين غطستين يُسمع صوت المدرّب وهو يبدي ملاحظاته عبر مكبّر الصوت. في الحوض المجاور كان الفريق يكرّس تمارينه للسباحة. تلميذة صبيَّة تلعب دور المدرِّب كانت منهمكة بقياس المواقيت الوسيطة بواسطة ساعة خاصَّة، وقد بدا نصف جسمها متجاوزًا خطّ الانطلاق. كان الجميع منغمسين في عملهم الدّؤوب. وكنت الوحيدة التي ليس لديها ما تفعله.

Twitter: @alqareah

فقط كنت أحاول تجاوز انفعالاتي.

لم أنتبه إلى انهمار المطر إلاّ عندما وصلت إلى باحة المدخل حيث الموزّعات الآليّة، بعد أن سلكت الممرّ الذي يفضي إلى الخارج من حوض الغَطْس مرورًا بحجرات الملابس، ذلك أنَّ جلبة المياه المتماوجة في الأحواض قد حجبت عنّي، طوال الوقت الذي قضيته في المدرَّج، وقع انهمار المطر في الخارج. ولأنَّ شمسًا هزيلة لاحت في السّماء طيلة النّهار، لبثتُ مذهولة حيال ذلك التّغيّر المفاجئ في أحوال الطّقس. خصوصًا أنَّ المطرَ كان غزيرًا، إذ بدا كستارة أسدلت فغطّت المدرَّج بأكمله، وحجبت ممرّ الحَوْر، واللوحة الضّوئيّة في ملعب البايسبول، وخضيري ملعب كرة القدم. وعلى الأرض كان الرّذاذ الذي يتطاير من ارتطام القطرات أشبه بنوافير مياه.

كنتُ واقفة أمام الباب الآليّ حائرةً في أمري. ذلك أنَّ بلوغ المحطّة عَدْوًا سوف يستغرق خمس

Twitter: @alqareah

دقائق وتحت وابل المطر هذا لن يستغرق البلل التامّ أكثر من خمس ثوان. ومجرّد التّفكير في أنّي قد أستقلّ القطار فَي ساعة الازدحام بمريلتي المبلّلة من شأنه أن يكون كابوسًا شديد الوطأة.

كان الديوان في ردهة المدخل يغصُّ بالناس الذين، هم أيضًا، يراقبون المطر ساهمين. بعضهم كان يغادر بواسطة سيّارة أجرة يتمّ استدعاؤها عبر كابينة الهاتف.

في آخر الأمر، خرجت من الباب الآليّ ووجدتني في الخارج. أذهلتني رائحة المطر القويَّة؛ كانت مفعمة بالتّراب المبلّل. جلست على السّلّم المسقوف تحت الإفريز وكانت قطرات تقذف رذاذًا فور اصطدامها بالأرض فتلطّخ جوربيّ.

لا بدّ أنَّ جون في اجتماع قرب حوض السّباحة؛ إلاّ إذا كان يستحمّ. ورحت أسأل نفسي إذا كان المطر سيتوقّف حين يخرج، بأيّ حال سأقابله إذا صادفني هنا، متروكة وحدي؟ لا بدّ أنّه سيصل رافلاً بكلّ النّضارة المعتادة لديه بعد الجهد الذي بذله في تمارين الغطس الذي يعشقه. أمّا أنا، فكنتُ أحفظ في روعي نتفًا من الطّفح الورديّ على جسم ربيه وبعضًا من بكائها؛ بقايا لم تفلح مياه حوض السّباحة

Twitter: @alqareah

أن تغسلها.

في آخر الأمر، قرّرت أن أنطلق تحت المطر. وفي تلك اللحظة بالذّات، استوقفني صوت جون: «آيا ـ شان!».

استدرت فإذا به يرمقني واقفًا عند أعلى السلّم. كانت نبرته بمثل نضارته حتّى خيِّل إليّ أنّني أحتاج إلى بعض الوقت ريثما أعثر على كلماتي تحت نظرته المواربة.

«يا لها من أمطار غزيرة! قال. ناظرًا إلى نقطة بعيدة، قبالته.

ـ أجل».

رحنا نتأمّل، بصمت، منظر المطر المنهمر، واقفين على درجة السّلّم. وبما أنَّ درجة السّلّم ضيِّقة كان علينا أن نقف ملتصقين، واحدنا جنب الآخر، لكي لا يُبلِّلنا المطر. وكانت حقيبة الرياضة البلاستيكيَّة التي أمسكها بيده تلامس فخذي من فوق تنّورتي.

كنت أشعر بالارتياح كأنّي نلتُ رضاه لأنّه لم يسألني عن سبب وجودي هناك. وكان المطر يزداد غزارة فحجب عنّا رؤية أيّ شيء سواه.

«وماذا عن بقيَّة أفراد ناديك؟ سألته وبقيت نظراتي

Twitter: @alqareah

ثابتة في نقطةٍ ما قبالتي، لأنّنا كنّا ملتصقين إلى حدٍّ يجعلني عاجزةً عن الاستدارة نحوه.

ـ لقد ركبوا سيّارة المدرِّب. أجابني قائلاً وهو مستغرق في تأمّل المطر.

ـ ولِمَ لم تذهب معهم؟

ـ لأنّي لمحتك.

ـ آه...».

في الواقع كنت أودّ أن أضيف شيئًا من الامتنان أو الاعتذار. ولكن لا أدري لماذا كانت الكلمات التي نطقت بها مفرطة في عاديّتها وواقعيّتها المحبطة.

«هل تحمل مظلّة؟».

هزّ جون رأسه.

«المطر غزير جدًّا بحيث لن تنفعنا أيّة مظلّة. إنّ مطرًا بمثل هذه الغزارة هو مطر استثنائيّ يستحقّ أن نبقى هنا، لأجله، بعض الوقت».

أن نبقى هنا لأجله بعض الوقت: جاءت عباراته هذه لتنحفر في أعماقي. كنت أتذوّقها برويّة، وراحت تغتني بنبراتٍ تعني أنّه يريد أن يكون هناك بقربي.

توقّفت سيّارة أجرة كانت مسّاحات زجاجها

Twitter: @alqareah

الأماميّ تُصدر صريرًا حادًا. بضعة تلاميذ كانوا قد أنهوا دروس السّباحة تصحبهم أمّهم، اجتازوا الباب الآليّ وهرعوا وهم ينطنطون وارتموا في داخلها، وسرعان ما محا المطر خطواتهم المستعجلة كما محا هدير المحرّك. وحدها أنفاس جون وقصف الرّعد المدوّي في البعيد، كانت تتناهى إلى سمعي عبر المطر.

برق خاطف كان يلتمع أحيانًا عند تقاطع خطّ السّماء وممرّ الحور، وكنّا نرقبه في كل مرّة مستدركين صيحة المباغتة. نور جميل خاطف لا عنفَ فيه. كنّا ننتظر بروقه بفارغ الصّبر كأنّنا نشهد احتفالاً للألعاب الناريَّة، وقد اتّجهت أنظارنا نحو شجرات الحور التي تكاد أن تكون غير مرئيَّة، لكي نعرف أين ستلوح البرقة المقبلة.

كانت كتف جون اليمنى قد ابتلَّت بالمطر. وقميص بزَّته البيضاء ملتصقة ببشرته؛ غير أنَّه لم يكن مباليًا بل ينتظر التماع البرق المقبل بحماسة صبيّ حَدَث.

حين أكون برفقته، أذكر طفولتي. تتدافع مشاهد كنّا فيها وحدنا في المؤسَّسة. وكنتُ الوحيدة التي تعرف من جعله يرضع حليب شجرة التِّين ومن كان

Twitter: @alqareah

بجواري ذلك اليوم الذي لهونا فيه في الرّواق المكسوّ بالثّلج. وحفظت، مثل حروف أثيرة، التعبير الذي استخدمه آنذاك والذي لا يعرفه أحد سواي، لا أفراد فريق الغطس، ولا أولاد مؤسَّسة هيكاري ولا أقرب أصدقاء المدرسة. وكنت من حين إلى آخر أخرج هذه الحروف من مغلّفها لكي أنظر إليها بعد أن أفردها بعناية لكي لا أفسدها.

غير أنّي لم ألحظ أنّ الحروف التي أضنّ بها كانت قد بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا. منذ متى لم تُضَفْ مغلّفات جديدة إلى سابقاتها؟ أمنذ أن غادرنا، جون وأنا، طفولتينا؟ وبدا لي أنَّ الأمر قد حدث منذ اللّحظة التي فيها بدأت أفكّر به بقلقٍ كما أفعل الآن.

كلّما نأت العاصفة ازدادت البروق خفوتًا، لكن غزارة المطر بقيت على حالها. وانتشر البلل من كتف القميص إلى كمّه. وكان قلقي شديدًا بشأن ذراعه اليمنى التي لا بدّ أنّها تخدّرت جرّاء البرد.

«لنعد إلى الداخل»، قلتُ ممسكة بمرفقه. وانصاع لاقتراحي بعد أن شاهد برقةً أخيرة.

اجتزنا ردهة المدخل في طريق عودتنا إلى حوض السّباحة. لم يبقَ أحدٌ من الغطّاسين؛ عدد من

Twitter: @alqareah

العاملين بسراويل السّباحة والتّيشيرت يعملون على تنظيف المكان بالمكنسة ذات السجف يمرّرونها على لوحة الغطس ثمَّ المرقاة وحافة الحوض. كانت الإضاءة قد خُفِّفت إلى النصف ما يضفي طابعًا مختلفًا على الأرجاء. إذ بدا لنا أنَّ ليل الدّاخل قد صار في ساعة متقدِّمة أكثر من ليل الخارج حيث المطر. كنّا متّكئين، بلا مبالاة، إلى الدّربزين في أعلى المدرّجات، وفي مدى أبصارنا تتماوج صفحة المياه الداكنة.

«وقفتنا هذه تولِّد لديّ انطباعًا غريبًا. قلت محدِّقة بجانب وجهه.

ـ لماذا؟

كان أدار وجهه نحوي.

«عندما أكون هنا أكون عادةً وحدي. أكون جالسة على المدرَّج، وأنت على مرقاة الغطس، ولا أعرف أحدًا آخر هنا. وإذا بنا، أنت وأنا، جنبًا إلى جنب.

ـ كنت تحرصين على المجيء طوال فترة التّمارين، أليس كذلك؟»

ونظرًا لأسلوبه الودود البادي الامتنان، في التعبير، وجدتني قادرة على الإجابة بنعم صادقة.

Twitter: @alqareah

وكنتُ أعبّر في سرّي لأنّي عجزت عن القولِ صراحة:

ـ هذا صحيح، لقد استسلمت لعضلاتك التي داعبت أعماقي، خلال تمارين الغطس.

«بعد انتهاء دوام المدرسة. آتي مباشرةً إلى هنا وأتفرّج. لا يحضرني أيّ شيء آخر قد أفعله. ليس عليّ أن أخطّط أو أنفق فلسًا أو أتكبّد مشقّة. لا بدّ أنّك تنظر إليّ الآن كأنّي عجوز متبطّلة.

ـ أعتقد أنّك لست مجبرة على تعذيب نفسك بهذه الطّريقة. أنت ما زلت تبحثين عمّا قد تفعلينه، أنت حائرة، لا أكثر ولا أقلّ.

ـ أهذا ما بي، برأيك؟

ـ أجل، أعتقد ذلك».

وهزّ رأسه.

لم أكن أعلم على الإطلاق إذا كنتُ أم لا في حالٍ من اللاّيقين. وبرغم ذلك فإنّ أسلوب جون الواضح في تأكيده قد جنّبني الاضطراب. حافظت على هدوئي. وحاولت أن أفكّر في ما أودّ أن أفعل. وبدا لي الأمر، في وقتٍ معًا، بسيطًا جدًّا ومعقّدًا جدًّا.

أن أدفع ريبه إلى البكاء، وأن أتفرّج على

Twitter: @alqareah

عضلات جون المبلَّلة.

فقط هذا. هذان الأمران فقط من شأنهما أن يوفّرا لي العزاء. وكان الأمر واضحًا غير أنّي بقيت عاجزةً عن تفسيره لأيٍّ كان، وبخاصَّة له هو.

كنّا نسمع حفيف المكنسة ذات السّجف. ولا بدَّ أنَّ نظام تفريغ الأحواض قد أشعل لأنَّ مستوى المياه انخفض بشكل واضح وبدأت تظهر زركشات الجنبات الداخليَّة التي تخفيها المياه عادة.

«أنت لا توحي بأنَّك محتار، قلتُ وقد ركلتُ بطرف حذائي محفظة كتبي التي وضعتها عند قدميّ.

ـ عندما نغطس لا يتاح لنا الوقت لطرح الأسئلة على أنفسنا».

كان ممسكًا بحافة الدّربزين بكلتا يديه مترجّحًا كأنَّه يقوم بتمارين السّاعدين.

«إنَّ ظروف مجيئي إلى هذه الدّنيا معقّدة بما فيه الكفاية، لذا حين أجدني فوق مرقاة الغطس لا أرغب إلاّ في شيء واحد وهو أن أقفز مباشرة دونما تردّد».

كنتُ أحدِّق بأصابعه القويَّة المتشبِّثة بالدّربزين.

«هل أنت حاقد على والديك؟

Twitter: @alqareah

ـ لا. كيف لي أن أحقد على أناس لا أذكرهم حتّى؟» أجابني قائلاً بعد هنيهات صمت. شعرت بغصّةٍ في القلب كأنّي علمت لتوّي أنّه يتيم. وكنت حزينة لاقتناعي بأنّ لطفه كلّه وبراعته في الغطس لن يغيّرا شيئًا في حقيقة أنّه يتيم. وكم وددت أن أدفّئ كتفه المبتلّة بأنفاسي.

فوقنا، كان المطر يتساقط بقرقعة على سقف الزّجاج. وكان العاملون قد نزلوا إلى حوضِ السِّباحة بعد إفراغه كلّيًا من الماء، وانهمكوا بتنظيفَ أرضيّته. بدا أوسع وأعمق ممّا تخيّلت. وكانت لمبات المنصّات قد أطفئت وبقيت إضاءة الحوض التي تصل إلينا خافتة. كنّا كأنّنا نوغل، تدريجيًّا، في قلب اللّيل.

جرى بيننا حديث مفتعل حول مراجعة مادّة الرّياضيّات، وحول الإعداد لرحلة نهاية السّنة أو حول الجمعيّة العموميّة للطّلاّب. ومن حين إلى آخر كنّا نرفع أنظارنا باتّجاه سقف الزّجاج للاستعلام عن حال المطر. كانت غزارته تخفّ شيئًا فشيئًا.

«أتساءل متى ستتمكّن ريبيه من مغادرة المستشفى».

كلماته تلك التي خرجت من فمه في سياق

Twitter: @alqareah

محادثة عاديَّة، وعلى نحو طبيعيّ، انغرزت مثل شوكة في صميم قلبي.

«وأنا أيضًا».

وإذ ذاك تراءى لي خيال رييه وهي مستلقية تحت شراشف مجعوكة، وعلى وسادتها دمية الفرو «ميكي»، كما رأيتها عندما ذهبت لزيارتها في حجرتها في قسم طبّ الأطفال المزدانة جدرانها بالرّسوم.

«أنت فعلت ذلك، أليس بلى؟ إنَّه أنت، أليس كذلك؟».

تابع جون حديثه على نحوٍ اعتياديّ فلم أدرك ما يرمي إليه ورمقته بنظرةٍ استفهام.

«أكنتِ أنتِ مَنْ تسبَّب بمرض رييه؟» ردَّد سؤاله بالنبرة نفسها. ما أراد قوله اخترقني مثل مشهد تجري أحداثه بوتائر بطيئة، لم تكن لا نبرته ولا حركاته لتشي بالعَتَب أو اللّوم، ومع ذلك شعرت بأنَّ مشاعري قد جَمُدَت على الفور.

«أكنت تعلم؟».

كان صوتي قد فقد أيَّة نبرة.

«أجل.

ـ كيف؟

Twitter: @alqareah

ـ كنت لا أدعك تغيبين عن ناظري».

ما قاله قد يكون تعبيرًا عن حبٍّ غامر أو عن قطيعة نهائيَّة.

«كنتُ قد لاحظت، من قبل. أعني علمت بما تفعلين».

كان جون لا يحيد بعينيه عن أرضيَّة الحوض.

«أنت تعلمين أنَّ رييه هي طفلة بائسة ولدتها أمّها، المتخلِّفة عقليًّا، في المراحيض العموميَّة».

كان صوته الخفيض يسري فيَّ كرعشة.

فلو أنَّه صارحني بمآخذه عليَّ، ربَّما أجبته بما يبرّر تصرّفي. لكنَّه، عوضًا عن ذلك، راح يفضح سرِّي وكأنَّه يبوح لي بحبّه؛ كنتُ أسمع خفقات قلبي متسارعة في صدري، وكنتُ عاجزة عن أيّ ردّ فعل.

كنتُ، في تلك اللّحظة، أودّ أن يتوقّف عن الكلام. لأنَّ كلامه لن يزيدني إلاّ حزنًا. بكاء رييه قد مزَّق إربًا عضلات جون المتلألئة بقطرات الماء. وراح كلّ شيء يميد من حولي، ووجدتني أقع في الحوض الفارغ، وزاغ بصري.

ساد صمت بيننا. ودربزين المنصَّات الذي اتّكأنا عليه صار فاترًا.

Twitter: @alqareah

«سوف تقفل الأبواب بعد قليل» صاح بنا من قعر الحوض أحد عمّال التّنظيفات، في اللّحظة التي استعاد فيها المشهد وضوحه أمام ناظري.

«حسنًا!» قال جون بصوتٍ عال.

«أرجو أن يكون المطر قد توقّف» أردف قائلاً وهو يرفع عينيه باتّجاه السّقف الزّجاج. وإذ تتبّعت بعينيّ حركة وجهه الجانبيَّة أيقنت أنّي لن أستطيع، بعد الآن، أن أطلب منه شيئًا. لا مداعبات، ولا حماية، ولا دفء. ومن المؤكّد أنَّه لن يغطس بعد اليوم في حوضي الخاصّ ذي المياه المعتكرة بنحيب الأطفال اليتامى، ثمَّ راحت أمواج النّدم تتدفّق عليَّ برفقٍ ولكن بلا هوادة.

«هلاّ مشينا؟».

لامست يد جون كتفي.

«إلى أين؟».

كانت كتفي تحترق في موضع لمسته.

«إلى المؤسَّسة، بالتأكيد».

بلغني صوته عبر كتفي. فانصعت برغم يقيني أنَّه عقاب شديد القسوة أن يكون علينا أن نعود، معًا، إلى المكان نفسه.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ولدت يوكو أوغاوا عام ١٩٦٢، و كانت في الخامسة والعشرين حين اعتُبِرتْ روايتها «حوض السباحة» علامة مميّزة في الرواية اليابانيّة الجديدة. و هي كاتبة تنتمي إلى الحساسية الجديدة التي أعقبت جيل الروّاد المخضرمين (كواباتا، تانيزاكي، ميشيما وسواهم). و لن تلبث أوغاوا أن تفرض أسلوبها الواقعي، الشعريّ، بعد نشر روايتها «الحمل» التي ستصدر عن دار الآداب والتي ستنال عليها جائزة «آكوتاغاوا»، أبرزَ الجوائز الأدبيَّة في اليابان، عام ١٩٩١، و تصبح في طليعة التيار الباحث عن صيغة مختلفة للأدب اليابانيّ الجديد. إلى اليوم أصدرت يوكو أوغاوا أكثر من عشر روايات تُرجم معظمُها الى عدد كبير من اللغات في العالم.

في «حوض السباحة» قصة ابنة مدير لإحدى دور الأيتام تعيش حياتها اليوميّة مع أولاد المؤسَّسة، كأنَّها، هي أيضاً، ليست لديها أسرة. و لكي تمضي أوقاتها تنصرف إلى متعتين تستعين بهما على تعويض الفراغ الذي يستقيم به عيشها: مراقبة مراهق خلال تمارين على رياضة الغطس في حوض السباحة، وافتعال ما يعذّب طفلة في الخامسة من عمرها.

تصميم الغلاف: مها نصرالله

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت